لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

أعلام الإسلام

ابن تيمية

عبد العزيز المراغي

دائرة المعارف الإسلامية

لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

أعلام الإسلام

ابن تيمية

عبد العزيز المراغي

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن تيمية

عالم اختصم فيه الناس خصمين، وافترقوا من أجله فريقين، فهو عند هؤلاء الإمام، وهو شيخ الإسلام، ومن حفظ العلوم واستوعب السنن والآثار، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم تر أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من رايته، برّز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه، آية في نقد الرجال، عمدة في الجرح والتعديل، عالم بالتفريع والتأصيل، إمام في القراءات، فقيه في النظريات، قائم بين الخلف ينشر السنة ومذهب السلف، شجاعته وإقدامه وجهاده أمر يتجاوز الوصف، ويفوق النعت وكما يقول الذهبي: « لو حلفت

بين الركن والمقام لحلفت أنني ما رأيت بعيني مثله » . ولا يبغضه كما يقول بهاء الدين السبكى إلا جاهل أو صاحب هوًى ، والجاهل لا يدرى ما يقول وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته.

وهو — بعد — عند أولئك عبد خذله الله تعالى وأضله ، وأعماه وأصمه وأذله، لا يقام لكلامه وزن، بل — كما قال ابن حجر الهيتمى — يرمى فى كل وعر وحزن، و يعتقد فيه أنه ضال مضل، جاهل غال، عامله الله بقوله وأجارنا من ختل طريقته وعقيدته وفعله ، أفرط فى الغى ، ووصل أذاه إلى كل بيت، خالف السنة وخرق الإجماع، وسب الأصحاب والأتباع، وأنجد وأتهم فى العقائد الفاسدة والآراء الفقهية الكاسدة ، كافر لا تصح الصلاة وراءه . إلى غير ذلك من نعوت وسعتها بطون الكتب ، لا نريد أن نمل القارئ بذكرها أو نستنفد جهده فيها .

شغل المماليك فى مصر، وأهم نوابهم فى الشام حينا من الدهر، وعنّى أمره القضاة وحير العلماء، وأتعب الجند، وألفه السجانون ، وفرّق العامة ، وضاف سجون القلاع فى مصر ودمشق والقاهرة والاسكندرية آنا بمفرده، وآخر مع أخيه أو شخص من ذوى قرابته، وما زالت ترفعه أرض وتضعه أخرى كأنه موكل بفضاء الأرض يذرعـه حتى ذهب إلى باريه وهدأ من لدد الخصوم وملاحاة الرجال ، ولم تعد مصر ولا الشام لتسمع ذلك الصوت الذى دوّى فى

جنباتهما نصف قرن أو يزيد، ولم تعد واحدة منهما ترى آثار ذلك القلم الذى فلت شباته يد الأقدار بعـد أن ظل يسطر ويكتب ويجيب على كل مسألة ويفصل فى كل قضية تتعلق بأى فن من الفنون التى عرفها العلماء يومذاك، وما ينطق إلا عن عقيدة، ولا يكتب إلا عن عقيدة، ولا يتحمل الأذى والرزية إلا فى سبيل عقيـدة، ولا يبغى الحياة ويسترخص الموت إلا فى عقيدة أو حفاظا على مبدأ [اعتقد بحق أو بغير حق] أنه طريق الله القويم وسنة نبيه الكريم وسبيل جماعة المسلمين

كان ابن تيمية صدى البيئة التى كان يعيش فيها، وكان جهاده ردّ فعل للحياة الاسلامية فى العصور التى تلت عصر المغول، فكان يكتب لأن ظروف الحياة الإسلامية من نواحيها الاجتماعية والسياسية والعلمية كانت تريده على أن يكتب، وكانت تقتضى كل عالم من علماء المسلمين فيـه أثارة من غيرة على الدين الإسلامى أن يكتب وينطق .

هاجم ابن تيمية أهل عصره، وخرج على التقاليد العلمية فى عصره، وثار على التفكير المألوف فى عصره، فاتهم بالزندقة، واتهـم بالخروج عن شريعة المسلمين ورمى بالضـلال، والضلال يومذاك كانت كلمة ترادف التفكير الحر الذى لا يرضى بالتقليد ولا يرضى أن يكون فى آرائه من العبيـد، وكان الضلال عنوان نضوج العقل أو كما يقول الغزالى (واستحقر من لا يحسده ولا يقذف، واستصغر من بالكفر أو الضلال لا يعرف)

ما هى تلك الظروف التى جعلت ابن تيمية يستهدف لذلك الجدل العنيف من خصومه، و يعرض نفسه لعراك قد كان له عنه مندوحة؟ وكان فى وسعه أن يرضى بما رضى به غيره من جلة العلماء يومذاك من مسايرة للتيار واندفاع وراء المألوف بدل أن يخاصم علماء الكلام و يطعن فى شيوخهم، و بدل أن يغاضب الفقهاء و يسفه — كما فعل ابن حزم — كثيراً من آرائهم ، و يتهم فهمهم للكتاب والسنة و إجماع المسلمين، و يحادّ الصوفية ، وكان للكثير منهم يومذاك فى الدولة صوت مسموع — مثل الشيخ أبى نصر المنبجى — ما كان يستطيع رجل غير ابن تيمية (فى عقيدته وقوة يقينه واعتقاده فى الله) أن يصمد لما صمد له أو أن يحاول الوقوف فى معركة إن كان فيها الرابح ففى سبيل الله أو كان فيها الشهيد ففى سبيل الله .

هذا ما سأحاول الإجابة عنه فى الفصول الآتية إن شاء الله .

الحياة السياسية والاجتماعية الإسلامية في القرن السابع والثامن

لم تكن الحياة السياسية فى الدولة الإسلامية بعد عصر المأمون تبشر باستقرار أو هدوء ؛ فقد مزقت فتنة الأمين والمأمون شمل الوحدة الاسلامية أكثر مما فرقتها هزات الصراع بين الأمويين والعباسيين ، و بدأت تظهر فى رقعة الدولة الإسلامية دويلات صغيرة فى الشرق والغرب وكل أسرة تحاول أن تجعل لها مكانا عليا لتشعر دولة الخلافة فى بغداد بنفوذها ؛ فقد قام الطاهريون بتأسيس أسرة قفى على آثارها الليثية والسامانية والغزنوية والسلاجقة فضلا عن تلك الأسرات التى ظهرت فى المغرب ، واستشرى خطر العنصر التركى فى جسم الدولة على نحو لم يدع لها نوعا من أنواع القوة، ولا لونا من ألوان الحيوية تستطيع أن تغالب به ذلك الخطر الذى كان يهدد أطراف الدولة الإسلامية من الشرق، ولا أن تقاوم تلك الثورات الداخلية مقاولة فعالة تستطيع معها أن تحفظ كيانها كدولة الخلافة ، ولا أن تصمد لتلك الموجات المغولية والتركية التى كان سيلها يتدافع رويدا رويدا حتى فى صدور الدولة العباسية . ولما وصل الطوفان المغولى إلى نهايته لم يستطع الخوارزميون أن

يقفوا فى طريقه ، فاستباح جنكيز خان وجماعات المغول حمى الدولة العباسية وملأوا العالم رعبا و بدلوه من بعد الخوف أمنا .

ولقد صدق جيبون E. Gibbon فى كتابه انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها Decline and Fall of the Roman Empire فى تصوير تلك الموجات المغولية وفعلها فى العالم اذ يقول : (انها كانت أشبه بهزات الطبيعة العنيفة التى تغير وجه الأرض) ثم يقول : (ان بعض سكان السويد — وقد سمعوا عن طريق روسيا نبأ ذلك الطوفان المغولى — لم يستطيعوا أن يخرجوا كعادتهم للصيد فى سواحل انكلترا خوفا من المغول)

وسواء أصح قول بعض المؤرخين أن خروج التتار إلى بلاد الإسلام كان نتيجة استدعاء الناصر لدين الله لهم ليخفف ضغط الخوارزميين على الخليفة أم لم يصح، وسواء أصح أمر النزاع بين السنيين والشيعيين فى بغداد أم لم يصح، فما من شك فى أنه لم يكن من السهل أن يؤخَّرَ ذلك القضاء الذى كان منتظرا، ولا ذلك المصير المحتوم الذى كان يتوقعه كل متتبع لتطور الحياة السياسية فى الدولة العباسية نتيجة للخلافات الداخلية وأثرا للصراع بين الثقافات المختلفة التى عجت بها بغداد والمدن الإسلامية، أو أثرا للنزاع العنصرى والجنسى، أو أثرا لكل تلك العوامل المجتمعة .

جاس المغول خلال الديار الإسلامية، واكتسحوا ما كان أمامهم من بقايا قوة للدولة العباسية كانت فى النزع الأخير من حياتها؛ فقد كان الخلفاء كما يقول السيوطى: (فى ذلك الوقت ما فيهم إلا مشغول بنفسه، مكب على مجلس أنسه، يرى السلامة غنيمة، وإذا عن له وصف الحرب لم يسأل إلا عن طرق الهزيمة، قد بلغ أمره من الرتبة، وقنع بالسكة والخطبة أموال تنهب، وممالك تذهب، لا يبالون بما سلبوا، وهم كما قيل:

إن قاتلوا قُتلوا أو طاردوا طُردوا   أو حاربوا حُربوا أو غالبوا غُلبوا

وقد فعلت الطبيعة فعلها فى بغداد فوق ما أصابها من خلافات ومحن؛ فلم تكد تجف دماء القتلى من الفتن التى حدثت فى سنة ٦٥٣ هـ بين محلة الرصافة ومحلة أبى حنيفة حتى فاض دجلة بالماء الذى طم بغداد، وعم دورها، وهدم مساكنها.

رفرفت رايات المغول على بغداد، وبدأ التاريخ يكتب للإسلام صفحة تغاير ماسبقها من صفحات، وتقدم جيل جديد، وأمة جديدة، لحمل راية الاسلام والذود عن حياضه، تلك الأمة هى مصر، وهذا الجيل هم المصريون، وقد كتب لهم أن يدفعوا العوادى عن الإسلام من الشرق والغرب، وأن يوقفوا المغول وما كان يظن أن يقف فى طريقهم شىء بعد ما أخذ هولاكو يبسط سلطانه على بغداد ويستفتى العلماء فى أيهما أفضل: السلطان الكافر العادل أو السلطان المسلم الجائر؟ فأفتاه العلماء بخطوطهم على تفضيل الكافر العادل.

كانت بغداد قبل طوفان المغول مقرًّا لعرش العباسيين، وعاصمة لسلطان يضم البلاد من حدود الصين الى الأندلس، وكانت مركزا وملتقى لثقافات الشرق والغرب، ففيها التقت ثقافة الهند والفرس بثقافة الاغريق والرومان، وعجت مدارس بغداد بالعلوم من شرعية وعقلية، ومن طب وهندسة، ومن فلك ونجوم إلى غير ذلك من شتى العلوم وأصبحت كعبة يقصدها كل من رام الثقافة والعلم من أطراف الدولة الإسلامية، ويجلس إلى حلقات علمائها، ويستمع إلى مطارحات أدبائها، وانشاء شعرائها والخلفاء يسبغون على هذه الحياة من ألوان برهم وحدبهم، ما شجع الناس على متابعة هذه الحركات العلمية التى كان الخلفاء يثيبون عليها ويشاركون فيها.

كان من الطبيعى أن يكون سقوط بغداد حادثا غير يسير لا من ناحيته السياسية ـ على اعتبار أن عاصمة الدولة قد سقطت، وأن الخلافة بما تحمل من معنى سام ورمز مقدس للمسلمين قد انهارت أمام قوم لا يعرفون للإسلام حرمة ولا قدسية ـ بل من ناحيته الثقافية، وهو القضاء على هذا المركز العلمى الذى كان مناط آمال الواردين فى الشرق والغرب فخبا ذلك المصباح الذى طالما شع على الناس من نور، وأرسل إليهم من هدى فى وقت لم يكن فى جو البلاد الإسلامية بلد يستطيع أن يسامى بغداد، أو يناظرها، أو يزعم أن له مايساوقها من علم أو علماء، أو مكتبات أو مدارس.

لم يكن ثمت بد من أن يفكر العالم الأسلامى فى مكان تستطيع فيه تلك الثقافات الأسلامية أن تعيش، وأن تجد جوا صافيا يلائم ازدهارها، واطراد نموها، وفى جوار يحميهم بعد أن دالت دولة ذلك الحمى المنيع ـ ولو فى الصورة ـ وهو حمى الخلافة والخلافة رمز المسلمين الروحى فى بغداد

لم يكن فى العالم الاسلامى يومذاك مكان يصلح أن يولى المسلمون وجوههم نحوه سوى مصر والشام، ففى الشرق سلطان المغول، وفى الغرب قد قضى على البقية الباقية من سلطان المسلمين فى الأندلس، وفى مصر والشام قد قامت دولة المماليك وقد كتب لها أن تقوم بالنصيب الأوفى فى خدمة الاسلام، ودفاع المعتدين من المغول فى الشرق والصليبيين فى الشمال :

وقد وجد العلماء من المماليك ماأملوا، ووجد الإسلام فيهم مارجا من حماة يقفون له كما وقف الأيوبيون من قبل، ويستطيعون أن يردوا عنه العوادى وساعدهم على ذلك ما رآه العلماء ورجال الدين من مواقف لهم فى سبيل الاسلام بعد أن لانت قناته فلم يتوانوا عن أن يمدوهم بنفوذهم فى الجماهير فأصدروا لهم ما أرادوا من فتاوى سهلت لهم جمع المال وتعبئة الرجال فى سبيل جهادهم .

ولما أراد قطز منازلة المغول كان أول ماأهمه يومئذ المال، فرجع إلى العز بن عبد السلام يستفتيه فى الأمر فأفتاه بأخذ ما شاء من المال، من أهل مصر

وفى ذلك يقول ابن إياس : ان هذه الأموال جمعت من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من ذكر وأنثى دينار ثم أخذت أجرة الأوقاف والأملاك شهرا ، وأخذ من أعيان الناس والتجار زكاة أموالهم معجلا ، وأخذ من التركات الأهلية الثلث . وبذلك استطاعوا أن يجعلوا من شتات المسلمين اجتماعا، ومن ضعفهم قوة، وأن يصمدوا لهذا الخطر فى وقت كان أبعد مايظن الظانون فيه أن تقف فى الأرض قوة أمام المغول وقد هرب الناس إلى اليمن و إلى الحجاز، كما استطاعوا أن يبهروا عيون الأفرنج بقوتهم حتى طلب أولئك أن ينضموا اليهم فى قتالهم ضد المغول .

كانت موقعة عين جالوت على يد قطز أولى المواقع التى استطاع فيها المماليك أن يثبتوا للعالم أجمع أن هناك دولة تستطيع أن تقوم بحق على حماية الإسلام بعد أن انهارت الخلافة فى بغداد، وأنها المعركة التى تستحق قول بعض المؤرخين : (إن معركة عين جالوت أنقذت العالم المسيحى من التتر فى وقت لم يكن من السهل على أى بلد فى أوربا أن يصمد لهم أو يقاومهم)

وفى الواقع أن معركة عين جالوت لم يكن لها الفضل فى صد التيار فحسب، بل كانت عاملا مهما فى تثبيط المسيحية فى الغرب، وضياع تلك الآمال العريضة التى كانت أوربا المسيحية تعلقها على قيام المغول، و إمكان استخدامهم معولا لهدم القوى الإسلامية فى الشرق بعد ما جثمت على صدورهم فى فلسطين

و بعد ما حطموا قوة الإسلام فى الغرب، و بذلك يضمنون بقاء الأماكن المقدسة في يدهم نهائيا .

بدأ المماليك بعد ذلك يعدون العدة، و ينظمون أنفسهم ضد المغول وضد الصليبيين، و بدأ سلطانهم يعظم، و نفوذهم ينمو، و بدأوا يقيمون قواعد الحكم فى مصر والشام على أساس متين من شتى النواحى كى يستطيعوا أن يسحروا أعين الناس كما سحرهم العباسيون، وأن يسترهبوهم كما استرهبهم العباسيون، وأن تقوم مصر ودمشق بالدور الذى قامت به بغداد .

ولسنا نريد أن نتبع المماليك فى نضالهم ضد المغول والأفرنج من الناحية الحربية، ولكننا نريد أن نعرض لماما لنظام المماليك الاجتماعى فى مصر والشام فى العصر الذى عاش فيه ابن تيمية، ومركز العلماء والجماعات الدينية فى البلدين. ويجب أن نلاحظ أن المماليك لم تدعهم عداوة التتار الى اطراح عاداتهم وتقاليدهم؛ فقد ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة: (أنه لما تولى الظاهر بيبرس أحب أن يسلك فى ملكه بالديار المصرية طريقة جنكيز خان ملك التتار وأموره ففعل ما أمكنه ورتب فى سلطنته أشياء كثيرة لم تكن من قبله بديار مصر مثل ضرب البوقات وتجديد الوظائف) الى غير ذلك، كما يجب أن نلاحظ أن تغلب المماليك على المغول من الناحية الحربية لم يوقف نفوذهم على بعض الجماعات التي كانت تعمل من حين لآخر لإضعاف سلطان المسلمين وتقوية شوكة المغول بشتى الطرق .

وأهمية الملاحظة الأولى أنها تفسر لنا ذلك النضال الخفي الذى كان فى عهد المماليك بين القوانين المعمول بها ، واختلافها تبعا للأفراد المتقاضين، ونوع القضايا المعروضة ، وما كان لذلك من أثر فى غاية الخطورة فى حياة الجماعة المصرية فى عهد المماليك تكلم به الناس وغنى به الشعراء .

قد كان الناس فى عهد المماليك طائفتين . الأولى أهل البلاد من المصريين فى شتى جماعاتهم ورتبهم ونحلهم، والأخرى تلك الطوائف المغولية التى جاءت لمصر مأسورة بعد موقعة عين جالوت، أو وافدة اليها، وقد كثر عدد الوافدين فى عهد الظاهر بيبرس حتى عرفوا بالوافدية وفى ذلك يقول المقريزى فى الخطط : (فلما كثرت وقائع التتار فى بلاد المشرق والشمال و بلاد القفجاق، وأسروا كثيرا منهم و باعوهم وتنقلوا فى الأقطار، واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية ، ومنهم من ملك مصر وأولهم المعز ايبك ثم كانت لقطز معهم الوقعة المشهورة على عين جالوت، وهزم التتار، وأسر منهم خلقا كثيرا صاروا بمصر والشام ثم كثرت الوافدية فى أيام الملك الظاهر بيبرس وملأوا مصر والشام فانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم هذا وملوك مصر وأمراؤها وعسكرها قد ملئت قلوبهم رعبا من جنكيز خان و بنيه ، وامتزج بلحمهم ودمهم مهابتهم وتعظيمهم، وكانوا انما ربوا بدار الأسلام وأتقنوا القرآن،

وعرفوا أحكام الملة المحمدية فجمعوا بين الحق والباطل، وضموا الجيد الى الردىء، وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم، والزكاة والحج، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام، وجعلوا اليه النظر فى الأقضية الشرعية كتداعى الزوجين وأرباب الديون ونحو ذلك، واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيز خان والاقتداء بحكم الياسا (قانون المغول ودستورهم)، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوائدهم، والأخذ على يد قويهم، وإنصاف الضعيف على وفق ما فى الياسا، وكذلك كان يحاكم التجار المتازون من الأهالى على مقتضى قواعد الياسا، وجعلوا للحاجب النظر فى قضايا الديوان السلطانية عند الاختلاف فى أمور الاقطاعات لينفذ ما استقرت عليه أوضاع الديوان وقواعد الحساب، وكانت من أجمل القواعد وأفضلها حتى تحكم القبط فى الأموال وخراج الأرض، فشرعوا فى الديوان مالم يأذن به الله تعالى ليصير لهم ذلك سبيلا الى أكل مال الله تعالى بغير حقه، وتحكموا بالجور تحكما خفى معه نور الهدى، وتسلطوا على الناس مقتا من الله على أهل مصر وعقوبة لهم بما كسبت أيديهم ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون)

فالمغول الذين كانوا بمصر كان لهم نوع من الامتيازات فلم يقبلوا التحاكم الى كتاب الله إلا فى الأشياء التى نسميها فى التشريع الحديث الأحوال الشخصية،

و بقى أمر التعاقد المدنى والجنائى الى الحجاب الذين كانوا يطبقون فى الحكم الياسا أو قانون جنكيز خان .

وأهمية الملاحظة الثانيـة أن مقاومة المغول للمماليك ـ ولو أنها فترت بعد موقعة عين جالوت وموقعة شقحبار التى شهدها ابن تيمية ـ فما من شك فى أن أنصار المغول والمسيحية الراغبين فى هدم الدولة الاسلامية وحل عرى الاسلام كانوا يحاولون من حـين لآخر العمل على تثبيت أقدام أولئك فى بلاد الشام. وهذا هو السر فى أن ابن تيمية لم يأل جهدا فى شن الغارة على النضيرية والباطنية فى الشام وشهد معركة كسروان ضدهم .

ولم يكن ليصرف جهوده ضدهم لأنهم أعداء ما يراه هو عقيدة إسلامية بل لأنهم كما يقول هو فيهم : (ومن المعلوم أن السواحل الشامية انما استولت عليها النصارى من جهتهم وهم دائما مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى، على المسلمين ، ومن أعظم المصائب عنـدهم فتح المسلمين للساحل وانتهاء النصارى بل من أعظم المصائب عنـدهم انتصار المسلمين عـلى التتار ، ومن أعظم أعيادهم إذا اسـتولى والعياذ بالله النصارى على ثغور المسلمين . ثم ان التتار انما دخلوا ديار الاسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين بمعاونتهم ومؤازرتهـم ، وهم أحرص الناس عـلى تسليم الحصون الى عـدو المسلمين وعلى إفساد الجنـد على ولى الأمر و إخراجهم عن طاعته) فهو

دائما يغرى بهم ، ويحرض عليهم نواب المماليك فى الشام ، ولا يتوانى عن الخروج فى سرية قدر لها أن تخرج لقتالهم، وهو يظن وجودهم شرا مستطيرا على كيان الدولة وخطرا على الجماعة الاسلامية .

وابن تيمية قد عاش فى الشام أغلب حياته ورأى ما تفعل هذه الطوائف فى جسم الدولة وإفساد الجماعة كما بيّن ذلك فى خطابه الذى أرسله للملك الناصر بعد معركة ـ كسروان ـ والذى سنعرض له فيما بعد إن شاء الله

نظام المماليك الاجتماعي والسياسي في مصر والشام

كان نظام المماليك فى مصر والشام نظاما عسكريا دكتاتوريا، يقوم على رأسه سلطان، ومن بعده أمراء من حقه هو وحده اختيارهم بدرجاتهم المتعددة من بين المماليك. ولهذه الامارة فى شتى درجاتها حقوق مالية فى الدولة تختلف باختلاف رتب الأمراء فى مقابل خدمات يقومون بها للدولة فى السلم والحرب. وللطبقة الارستقراطية بوجه عام -- كما أسلفنا — حق التقاضى على يد الحجاب لا على يد القضاة، و بمقتضى قواعد الياسا لا قواعد القرآن، وكان نظام توزيع الأراضى فى مصر يقصد به إرضاء هذه الطبقة وتوابعها من الأجناد والأتباع مما أدى الى الاضطراب فى كثير من الأوقات فى تقسيم الأراضى المصرية وقد شهد ابن تيمية فى عصره روك الأراضى المصرية مرتين مرة فى عهد حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧ هـ، وكان الغرض منه تنمية موارد الدولة وزيادة ما يصيبها من أراضى الاقطاع سدا لحاجتها ومنافعها، وكان نتيجة هذا العمل قتل لاجين. ومرة أخرى فى عهد الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ ١٣١٥ م

كان القصد منه إرضاء الأمراء، وكان من نتيجته تهدئة الأحوال فى عهده تهدئة جعلت من السهل على الناصر أن يبقى فى حكمه تلك المدة الطويلة دون أن يعكر صفو حكمه فى المدة الثالثة معكر، واستطاع أن يقوم بابطال جهات من المكوس أرضت عنه سواد الشعب، وحببت فيه العلماء ورجال الدين

وكانت لغة هذه الطبقة الارستقراطية اللغة التركية ولذلك لم يكن الشعب يقبل عليها عن طيب خاطر لاعتقاده أنها لغة السادة الذين اقتسموا أرضه واستولوا على خيراتها كما حدثنا بذلك السخاوى فى الضوء اللامع

وتأتى بعد هذه الطبقة طبقة العلماء . وتشمل هذه الطبقة رجال العلم والقضاة والمتصوفة. وقد ساعد على تكوين هذه الطبقة عدة عوامل : أهمها تلك المدارس التى قام بإنشائها الأيوبيون تكثيرا للثقافة السنية وحربا للثقافة الشيعية والفاطميين الذين ورث هؤلاء الأيوبيون ملكهم ، وإقبال العلماء من شتى الأقطار فى الشرق والغرب ليعيشوا فى كنف هؤلاء المماليك الذين لم يدخروا وسعا فى إكرام العلماء والقيام بما يكفل راحتهم وتهيئة كل الوسائل التى تضمن للقاهرة ودمشق أن ينافسا بغداد فيما كان لها من أثر فى الثقافة الإسلامية ومكانة فى العلوم ، ولكن ثمة شيئا بارزا فى تاريخ هذه الطبقة فى عصر المماليك ؛ ذلك أنهم لم يكونوا كسلفهم من العلماء فى القرون السابقة للقرن السابع قانعين بسد حاجات عيشهم عن طريق السعى وراء الرزق

أو استجلاب الربح من صنعة أو حرفة؛ فإنك لتقرأ فى تاريخ العلماء فى العصر الأول أسماء البزاز والزجاج والصائغ والصباغ والفراء والاسكافى والثعالبى وما إلى ذلك من أسماء تدلك لأول وهلة على الحرف التى كان يمارسها أصحابها مع مالهم من شهرة فى العلم ، ولكن العلماء فى عهد المماليك وقبله بقليل كانوا يستندون فى أرزاقهم على الدولة وما تعطيهم من إعانات ، أو ما كان لهم من غلات أوقاف أو نظارات فى حياتهم، وكانت توجه إلى القادرين من أبنائهم بعد وفاتهم، وكثيرا ما كان هذا النوع فى كل عصر سببا فى إمكان الدولة أن تضمنهم فى صفها دائما ، ولم يكن ذلك ليعطى للعلماء حرية وافرة فى إبداء ما يرون من آراء على الوجه الذى يرضى الله والضمير والحق والعدل ؛ بل كثيرا ما كان هذا النوع سببا فى تحاسد العلماء وسعى بعضهم ببعض عند الأمراء لتوجيه وظيفة أو إعطاء وقف، وحسبك تصويرا لهذا الموقف قطعة من رثاء الإمام ابن الوردى لابن تيمية إذ يقول :

ألم يك فيكمو رجل رشيد ... يرى سجن الإمام فيستشاط
إمام لا ولاية كان يرجو ... ولا وقف عليه ولا رباط
ولا جارا كمو فى كسب مال ... ولم يعهد له بكم اختلاط
ففيم سجنتموه وغظتموه ... أما لجزا أذيته اشتراط

والسيوطى فى حسن المحاضرة يحدثنا عن قصة رفعها الشيخ جمال الدين ابن مالك إلى السلطان وفيها : « رفعها الفقير إلى رحمة ربه محمد بن مالك يقبل الأرض وينهى إلى السلطان أيد الله جنوده ، وأيد سعوده أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة وفنون الأدب ، وأمله أن يعينه نفوذ من سيد السلاطين ومبيد الشياطين ـ خلد الله ملكه ـ على ما هو بصدده من إفادة المستفيدين وإفادة المسترشدين بصدقة تكفيه هم عياله ، وتغنيه عن التسبب فى صلاح حاله ، فقد كان فى الدولة الناصرية عناية يتيسر بها الكفاية مع أن الدولة من الدولة الظاهرية كجدول من البحر المحيط والخلاصة من الوسيط والبسيط ، وقد نفع الله بهذه الدولة الظاهرية الناصرية خصوصا وعموما وكشف بها عن الناس أجمعين غموما ولم بها من شعث الدين ما لم يكن ملموما ، فمن العجائب كون المملوك عن مواد خيراتها وعن يمن عنايتها غائبا محروما ، مع أنه من ألزم المخلصين للدعاء بدوامها ، وأقوم الموالين بمراعاة زمامها ، لا برحت أنوارها زاهرة ، وسيوف أنصارها قاهرة ظاهرة ، وأياديها مبذولة موفورة ، وأعاديها مخذولة مقهورة بمحمد وآله »

وكان للكثير منهم عشرات من الوظائف تدر عليهم الخير والرواتب ، وقد قال المقريزى فى كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) فى حوادث سنة ٦٩٠ هـ « ولزم ابن بنت الأعز داره ولم يترك بيده شىء من الوظائف ، وكان

بيده سبعة عشر منها ، وهى : قضاء القضاة بديار مصر وخطابة الجامع الأزهر ونظر الخزانة،ونظر الأحباس،ومشيخة الشيوخ،ونظر التركة الظاهرية وأولاده وأوقافه وأملاكه وعدة تداريس، وألزم الإقامة فى زاوية الشيخ نصر المنبجى خارج القاهرة حتى قام بما قرر عليه من أموال بعد ما باع ورهن واقترض، ويقال إنه حمل من جهته مبلغ ثمانية وثلاثين ألفا » .

وكانت الرغبة الملحة منهم فى الوظائف سببا فى تحاسد وتباغض كثيرا ما أدى إلى طعن بعضهم فى بعض ، واستغلال الأمراء هذه الفرصة لتنفيذ أغراضهم ففى سنة ٦٩٠ هـ عزم السلطان الأشرف قلاوون على صرف قاضى القضاة تقى الدين ابن بنت الأعز عن وظيفة القضاء وسائر ما بيده من المناصب بوشاية الوزير ابن السّلعوس وخرج البريد يطلب بدر الدين بن جماعة خطيب القدس ليلي القضاء بمصر ، وكان السبب في طلبه ان ابن بنت الأعز لما عزل استدعى السلطان أعيان الفقهاء الشافعية بمصر والقاهرة، وجعل كل واحد منهم بمكان فلم يعلم واحد منهم بالبقية وأحضرهم واحدا واحدا وسألهم عن الجماعة من يصلح فيهم لولاية القضاء، فما منهم إلا من أساء القول فى أصحابه ورماهم بما لا يليق، فانصرفوا وقد انكف السلطان عن ولايتهم وأعلم وزيره بما قال بعضهم فى حق بعض من الفحش فأشار عليه الوزير بولاية ابن جماعة خطيب القدس، فوصل إلى القاهرة وولى قضاء القضاة وتدريس المدرسة الصالحية بين

القصرين وخطابة الجامع الأزهر . ولكن العلماء رغم هذه الملاحظة كان منهم من يتمتع فى الدولة بمنزلة قل ان كانت لأفراد من غيرهم ، فكلمتهم مسموعة ورأيهم مطاع ، وكثيرا ما قام بعضهم بأدوار خطيرة فى سياسة البلد الداخلية والخارجية ، وكثيرا ماقام بعضهم بالسفارة بين المماليك و بعض الدول الأخرى وسنرى فى الفصول المقبلة كيف قام ابن تيمية بالسفاره لدى ملك المغول غازان. وكان ذوو النظر الثاقب منهم يسهلون لسلاطين المماليك حل بعض ما استعصى من مشاكل تحتاج إلى دقة فهم وسداد رأى سواء أكان عند العامة أم عند الخليفة فى مصر ، كما كانوا أداة من أدوات الاستقرار فى ذلك العصر المضطرب الصاخب الملىء بالمشاكل فى الداخل والخارج ، ولم يعلم أن أحدا منهم ساهم بنصيب فى ثورة من الثورات فى عهد المماليك .

وكان ابن تيمية معنيا كل العناية بهاتين الطبقتين لما لهما من منزلة يستطيعون عن طريقها توجيه الشعب وجهة صالحة هذه فى أمور الدين وتلك فى أمور الدنيا، وكان كل وكده أن يرى تلك الارستقراطية العسكرية للمماليك موجهة نحو خير الشعب فى مصر والشام خاضعة لقانون الإسلام غير حائدة عن طريق الخير وسبيل الشرع، وحسبك أن تقرأ رسالته « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » لترى الروح التى كانت تملى على ابن تيمية هذه الرسالة. كذلك كان همه أن يرى العلماء جديرين باسم الخلافة عن رسول الله

فى القيام بواجب الدين والصدع بالحق ، أشداء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أعزاء فى نصر الدين فلا يكونوا على هامش الزمن فى مصر ولا يقضى الأمر إلا حين يشهدون ، ولا يستبد الارستقراطيون من المماليك فى الشعب باسم السلطان المادى الذى فى يدهم، بل يكون رأيهم النافذ وإليهم المرجع فى حل المشكلات التى تواجه الشعب فى أمور دينه أو دنياه ما دام العلماء قادرين على الاضطلاع بما يضطلع به هؤلاء الرجال العسكريون.

وكثيرا ما كان سلاطين المماليك يحسبون كل حساب للبارزين من العلماء الذين يستطيعون قيادة الشعب و يضمنون استجابته لهم. و يقول السيوطى فى حسن المحاضرة : « وكان الظاهر بمصر منقمعا تحت كلمة الشيخ عز الدين بن عبد السلام لا يستطيع أن يخرج عن أمره حتى انه قال لما مات الشيخ ما استقر ملكى إلا الآن »

وكان الإمام النووى يكثر المكاتبات إلى الظاهر يعظه فى أمور المسلمين وقد كتب إليه مرة كتابا يذكره ما وقع فى الشام من ضيق المعيشة وارتفاع الأسعار و يشير عليه بالرأى ، ولم يكن جواب الظاهر له مرضيا فكتب إليه النووى كتابا آخر أغلظ فيه النووى القول .

ولما خرج الظاهر لقتال التتار أخذ فتوى العلماء بجواز أخذ مال الرعية ليستنصر به على قتال العدو فكتب له فقهاء الشام بذلك فقال : « هل بقى

أحد » فقيل « نعم » بقى الشيخ محيي الدين النووى، فطلبه فحضر، فقال « اكتب خطك مع الفقهاء » فامتنع فقال: (ما سبب امتناعك) فقال « أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير بندق دار وليس لك مال ، ثم منّ الله عليك وجعلك ملكا وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب، وعندك مائتا جارية لكل جارية حق من الحلى، فإذا أنفقت ذلك كله و بقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص و بقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيك بأخذ المال من الرعية فغضب الظاهر من كلامه وقال: « اخرج من بلدى » يعنى دمشق، فقال « السمع والطاعة » وخرج إلى نوى فقال الفقهاء « هذا من كبار علمائنا وصلحائنا فأعده إلى دمشق، فرسم برجوعه فامتنع الشيخ وقال لا أدخلها والظاهر بها، فمات الظاهر بعد شهر . وأمثال هذه القصة تعطيك فكرة عن أصحاب الآراء الحرة الجريئة من العلماء الذين يعيشون لله وللدين لا يبغون بالدفاع عن الفكرة والعقيدة بديلا ، ولا يلهيهم مال ولا نشب عن القيام بما استخلفهم الله له من نصح لله ولرسوله ولعامة المسلمين ، هذا هو الطراز الذى أراد ابن تيمية أن يكون كل العلماء على غراره حتى تكون كلمة الله عن طريقهم هى العليا وأن يعود الإسلام إلى سابق عهده .

ووراء هاتين الطبقتين فى نظام المماليك طبقة الشعب والدهماء بما فيهم من

قبائل العرب الذين كانت لهم آثار خطيرة فى بعض الأحايين لموقعهم فيما بين المغول والمماليك، وكان لهذه القبائل من العرب إمارات ، وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية صلة مع مهنا بن عيسى أحد رؤساء هذه القبائل . وابن تيمية فى رسالته السياسة الشرعية يشير إلى شيء من نظام البدو والظاهر أن الرسالة التدمرية التي كتبها ابن تيمية كانت نوعا من أنواع التهذيب الإسلامى يعرضه على القبائل الإسلامية فى الشام طلبا للهدوء والاستقرار بين هذه القبائل القلقة والثائرة عند كل مناسبة

الحالة السياسية

لقد خلق سقوط بغداد وزوال الخلافة منها مشكلة من أهم المشاكل في تاريخ النظام السياسي الإسلامي، فقد كان المسلمون يرون أن وجود الخليفة لازم لنفاذ أغلب التصرفات التي تستمد كيانها القانوني والشرعي منه، فلم يكن ثمة مندوحة عن التفكير في حل يستطيع به المسلمون أن يرضوا شعورهم الديني نحو هذه التصرفات، ولم يكن ثمة في رقعة البلاد الإسلامية من يستطيع أن يقيم دعائم الخلافة والقيامة على الخليفة سوى المماليك لما لهم من قوة ظاهرة بعد هزيمة التتار في عين جالوت، ولم يكن ثمة دولة إسلامية تستطيع أن تنافسهم في ذلك. نعم إن التفكير في نقل الخلافة إلى مصر كان يجول بخلد كثير من المماليك في مصر، فقد حاول أحمد بن طولون أن ينقل مركز الخلافة إلى مصر وكاد يتم ذلك لولا أن اكتشف أمر الخليفة المعتمد وهو في طريقه إليها، وكان الباعث على ذلك جعل مصر مركزا للعالم الإسلامي والقضاء على ما كان يحاك حولهم من دسائس في دار الخلافة في بغداد. والمماليك بما لهم من قوة إذ رأوا أنهم الوارثون لهذه الخلافة خصوصا بعد ما اتجهت أنظار العالم الإسلامي نحوهم

لحماية الإسلام من عوادى المغول والافرنج، و برهنوا على أنهم جديرون بما أمله فيهم المسلمون ولما تفرق بنو العباس بعد نكبة بغداد فرّ من كبارهم اثنان هما المستنصر أبو القاسم وأبو العباس الحاكم فقصد الأول إلى بنى مهارش من عرب العراق والثانى إلى آل مهنا من عرب الشام ففكر كلا الأميرين فى إعادة الخلافة ، فاستعان الحاكم بعيسى بن مهنا الذى طلب من الملك الناصر صاحب الشام أن يعينه على تحقيق هذه الفكرة، ولكن مفاجأة التتار للناصر لم تمكنه من إتمام ما قام به وجدد عيسى بن مهنا هذه المحاولة مع قطز ولكن مقتل قطز لم يساعد على إتمام الفكرة حتى جاء الملك الظاهر فتوجه عيسى إليه طالبا تحقيق الرغبة، وطلب إشخاص الحاكم إليه ولكن الأقدار لم تسعف الحاكم على تحقيق بغيته إذ علم وهو فى طريقه إلى مصر أن أبا القاسم نزيل بنى مهارش قد سبقه إليها مع وفد منهم

وقد تابعه بعض الأمراء الخارجين عن طاعة بيبرس ، وظهر فى العالم الإسلامى خليفتان وأراد الظاهر أن يستغل وجود أمير من العباسيين فى مصر وشهد الناس أنه ابن الامام الظاهر ابن الامام الناصر فأثبت الظاهر نسبه و بايعه بالخلافة ، وفكر المستنصر فى الذهاب إلى العراق لإعادة الخليفة فلم يمانع الظاهر بيبرس فى ذلك ، فجهزه بما شاء واعتزم أن يعينه بقوة عظيمة يستطيع معها أن يرد عدوان التتار على بغداد ، ولكن وشاية بعض أمراء

الموصل بالخليفة عند الظاهر ، وتخويفهم له من منازعة الخليفة للمماليك حملاه على العدول عن رأيه وأرسل معه قوة لا يزيد عددها عن ثلاثمائة فارس.

وبعد محاولات طويلة لا داعى للاسهاب بذكرها ومناورات استطاع المستنصر أن يضم إليه أنصار الحاكم وحاول المستنصر أن يقاوم قرابغا ومن معه من التتار، ولكن لم يكتب له التوفيق، ولم يتم للعباسيين قصدهم من إرجاع الخلافة ولم يتحقق للظاهر ما رمى إليه من إرجاع الخلافة فى بغداد لتكون ردءا له ضد المغول، وانتضم شتات المسلمين هناك، ولما فر الحاكم لم يعد للشام مقر خلافته بل رجع للقاهرة بعد ما تحقق ضياع المستنصر وسارع إلى بيبرس ليبايعه بالخلافة، ولم يتوان الظاهر فى ذلك ولم يفكر بعدها فى إرجاع الخلافة إلى بغداد كما فكر أولا بل أبقى الخليفة فى مصر ليكون له من وجوده تحت حمايته ضمان لعدم تفكير الخليفة فى مناوأة الظاهر ، وليستطيع عن طريقه تنفيذ رغباته باسم الخليفة صاحب الولاية الشرعية التى تستمد بعض تصرفات كيانها الشرعى منه . ولم يكتف الظاهر ولا المماليك من بعده بذلك الموقف المزرى للخليفة الذى لم يكن يحس بوجوده إلا فى المواقف التى يستدعى الأمر — من الناحية الشكلية — وجوده فيها . ورغم أن مصر من حين صارت دار الخلافة كما يقول السيوطى ، عظم أمرها وكثرت شعائر الإسلام فيها وعلت فيها السنة وعفت منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء ومحط الرجال

الفضلاء رغم كل ذلك فقد كان المماليك يسومون الخلفاء كل ألوان العسف والاضطهاد . وحسبك أن تقرأ القصة التى ذكرها أبو الفداء فى حوادث سنة ٧٣٨ ﻫ لتعلم مقدار الضعة التى كان فيها قدر الخلفاء فى مصر إذ يقول: « وفيها أخرج الخليفة أبو الربيع سليمان المستكفى بالله من مكانه بمصر عنفا إلى قوص وقلت فى ذلك مضمنا القصيدة المشهورة لأبى العلاء :

أخرجوكم إلى الصعيد لعذر　　غير مجد فى ملتى واعتقادى
لا يغيركم الصعيد وكونوا　　فيه مثل السيوف فى الأغماد

فأصبح النظام السياسى للمماليك ثابت الأساس ببقاء الخلافة إذ ضمنوا أن كل محاولة لإبعادهم عن صولجان الملك فى مصر مقضى عليها ، وقد أصبح سلطانهم — بوجود الخليفة و إقراره لهم — شرعيا من جميع النواحى ، وضمنوا من ناحية أخرى أن لا يقوم شيعى فى مصر بالدعوة للفاطميين ، فقد كسبوا بإرجاع الخلافة عطف العالم الإسلامى عليهم بعد ما بهروا أعينه بانتصاراتهم على المغول وعلى الصليبيين ، و بعد ما أضاءت سماء مصر بتلك النجوم الزاهرة من العلماء فى كل وادٍ من أودية العلم، وأصبح المماليك بوجود الخليفة فى مصر قادرين على أن يعطوا الصبغة الشرعية لكل الحروب التى قاموا بها والفتوحات التى نتجت عنها .

ولم يعد للعلماء طريق للاعتراض على وجود سلطان من المماليك على

رأس الدولة بعـد أن استمد سلطته ـ ولو اسميا ـ من وجود خليفة مستوفى للشرائط التى قيل عنها ان المسلمين قـد أجمعوا عليها مهما كان مظهر الخليفة ومهما كان مقـدار نفوذه ما دام متمتعا بمظاهر الزينـة التى أسبغها التاريخ والعرف على الخليفة ، وما دام قانعا بهذه المظاهر دون أن يفـكر فى منازعـة السلطان شيئا من نفوذه ، واليك صورة ممـا كتبه الخليفة أبو الربيع سليمان العباسى لركن الدين بيـبرس الجاشنكير « وإنى رضيت لكم بعبـد الله تعالى الملك المظفر ركن الدين بيـبرس نائبا عنى لملك الديار المصرية والبلاد الشامية وأقمته مقام نفسى لدينه وكفايته ، وأهليته ورضيته للمسلمين وعزلت من كان قبله بعد علمى بنزوله عن الملك، ورأيت ذلك متعينا على وحكمت بذلك الحكام الأربع واعلموا رحمكم الله أن الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالفا عن سالف ولا كابرا عن كابر وقد استخرت الله تعـالى ووليت عليكم الملك المظفر فمن أطاعه فقد أطاعنى ومن عصاه فقد عصانى ومن عصانى فقد عصى أبا القاسم».

ونحب أن نلاحظ أن هذه الصورة التى كانت فى مصر من وجود خليفة ليس له من مظاهر السلطان شىء ووجود ملك صاحب القوة الفعليـة لا يعنى (كما حاول بعض الباحثين تصويرها) أنه كانت محاولة للفصل بين السلطة الروحية والزمنية فى عصر المماليك فقد كانت مثل هـذه الآراء أبعد شىء عن عقليـة المسلمين فى العصور الوسطى . والاعتراف بسياسة الأمر الواقع أى بضعف

الخليفة عن استعمال نفوذه كنائب عن رسول الله لا يعنى المحاولة لخلق نظرية الفصل بين السلطتين ، وحتى لو فكر فيها فى ذلك الوقت ما كان أحد ليجرؤ بالتحدث فيها والعمل عليها أمام من بيدهم قيادة شعور العامة الدينى وهم العلماء

ولو أن سلاطين المماليك كانوا فى الغالب يصلون إلى السلطة بالقوة لا بالانتخاب فما كانوا يستغنون عن تصديق الخليفة وعن مظاهر السلطنة والتقليد التى حدث مؤرخو هذا العصر عنها وعن فخامتها وروعتها الشىء الكثير وما كان تقليد السلطان وتصديق الخليفة على تسليمه زمام السلطة يعنى انفراده بالأمر بل كان يحوطه عدد من الموظفين فى الدولة يرجع اليهم والى الأمراء ورجال العلم فى شتى أنواع المشاكل التى كانت تعرض وكان شعور العامة فى بعض الأحايين يبدو بصورة تجعل من العسير على أصحاب السلطان أن لا يخضعوا لآرائهم وكان التصادم بين هذه القوى فى بعض الأحايين سبباً فى القلق وعدم استقرار الأحوال مما كان نتيجته الثورة التى شاهد عصر المماليك كثيراً منها . ولم تكن مصر — وهى معتبرة إلى حد ما — وحدة من الناحية الجنسية والجغرافية مبعث قلق للمماليك مثل ما كانت سوريا بأقاليمها المتعددة وأخلاط أهلها إذ كان نظامها إلى حد مّا يشبه نظام الأيوبيين وكان للمماليك نواب فى الشام ، وكان النائب — كما يقول السيوطى — سلطاناً

مختصراً وهو الذى يفرق الإقطاعات ويعين الأمراء والوظائف ويتصرف التصرف المطلق فى كل أمر إلا فى ولاية المناصب الجليلة كالقضاة ، والوزراء وكتاب السر ، وظلت هذه الوظيفة حتى أبطلها الملك الناصر محمد بن قلاوون. ولم يكن النواب فى كثير من الأوقات على وفاق مع السلطة المركزية فى مصر. وقد شهد ابن تيمية كثيرا من أنواع هذا الصراع بين السلطتين .

وليس من السهل أن يقال ان نظام الحكم فى عهد المماليك كان يستند الى ما نسميه الأحكام الشرعية فقد عرضنا فيما مضى لنظام التقاضى بين الطبقات، وأن المغول وبعض التجار الممتازين ما كانوا يرضون إلا بالتحاكم بمقتضى قواعد الياسا، ولو أن بعض العلماء كما أسلفنا كان عنده شىء من الجرأة واستطاع أن يثور على ما يراه مخالفا لنظم الشريعة وللقواعد التى عرفت باسم الفقه الإسلامى، فإن الغالبية كانت ترى الخضوع للسلطان مبدأ ، وكان بعضهم آلات طيعة فى يد سلاطين المماليك ، فكان لهؤلاء من بعض العلماء ما شاءوا فى شتى نواحى الحياة ، وكان رأى السلطان كافيا فى أن يجد له أحد العلماء ألف تسويغ وتسويغ من نصوص الشريعة ، وكان لهم مبدأ المصلحة والعادة السلطانية باباً يلجون منه كلما أعياهم الأمر أو كلما رأى أحد من السلاطين مصلحة فى ذلك وبذلك أصبح ما يسمى سياسة قسيما للشريعة ،

وذلك ما حدا بابن تيمية وتلميذه ابن القيم للطعن على تلك السياسة وجعلها قسيمة للشريعة ، والذهاب الى أن السياسة إن كانت عادلة فهى شريعة و إلا فهى ظلم يجب أن يعدل عنه ؛ وهذا ما يفسر لنا أيضا ثورة ابن تيمية وثورة بعض العلماء على كثير من الأشياء التى يريدها السلاطين باسم المصلحة أو باسم السياسة. ويرى بعض المستشرقين أن ثورة ابن تيمية على تحليل المطلقة ثلاثا على النحو الذى صوره ابن تيمية ما كانت إلا لظنه هذا التحليل طريقا من طرق التحايل على الزنا فى ذلك الوقت .

وقد كانت تلك الأنواع المتعددة من المكوس التى لم يكن لها مسوغ شرعى مثار شكوى كما كان الاستيلاء على المواريث ومقاسمة الورثة مبعث تذمر عند العلماء وعند الجمهور ، ولم تكن العقوبات تطبق على الوجه الشرعى؛ فالحدود معطلة والطبقة العليا أو الارستقراطية فى الدولة تفعل ما تشاء دون أن يكون عليها حسيب أو رقيب

ولكننا مع هذا يجب أن لا نفرط فى تقدير عصر المماليك من ناحية الدين والسير وراء تعاليمه فكثيرا ما بدرت منهم البوادر وسارت ببعض عسفهم السوائر ولقد أنصف شوقى وهو يمثل عصر المماليك اذ يقول عن لسان امرأة أمام باب القصر وقد أدماها الجند

جنود وراء كبير لهم   من الدين قد جُرِّدوا والخلق

أتوا دارنا فمضى نصفهم أزال العفاف ونصف سرق
ومال على أذنى بعضهم بسكينه طمعا فى الحلق

ولو أن هذه صورة لعصر المماليك المتأخر فما من شك فى أن الاضطرابات فى العهد الأول طمعا فى السلطة وتغلب بعض الأمراء على بعض كانت تجر وراءها شيئا مما ذكره شوقى فى رواية على بك الكبير

وكان كثير من أنواع المنكر يباح علنا والدولة تعترف به وتفرض عليه الضرائب ، وتجبى عنه الأموال كما يحدث المقريزى عن المكس الذى كان يجبى عن البغايا

ومن المشاكل التى كان يواجهها المماليك من حين لآخر ، والتى شغلت ابن تيمية مشكلة المسيحيين واليهود فى مصر والشام ومشكلة الدروز والباطنية فى سوريا ، ولم يكن لسلاطين المماليك سياسة خاصة إزاء هذه الطوائف بل كانوا يرتجلون سياستهم حسب ضرورات الساعة ، وكان العداء لهذه الطوائف نتيجة حتمية لاصطدام المماليك بالصليبيين فى الشام ، وكثيرا ما اتهم اليهود والنصارى بأنهم تعمدوا إضرام النار فى بعض الأحياء ، وكان ذلك فى الغالب تعلات يقصد بها الإيقاع بهم وإرضاء ثورات الشعب الجامحة ، والعلماء كثيرا ما كانوا يفتون بحل قتلهم ، وأخذ غرامات منهم ، وهدم كنائسهم وأديرتهم كما وقع فى سنة ٦٧٨ هـ وسنة ٦٨٢ هـ .

ولم يكن المماليك ليحسبوا حسابا لتدخل أوربا لرفع الحيف عن المسيحيين بعد أن مات لويس التاسع فى سنة ٦٨٩ ﻫ وبذلك خلا الجو من أكبر منافس لبيبرس الذى استطاع أن يوجه ضرباته القاصمة لبوهمند ، وتلا ذلك ضعف سلطان الاسبتارية بالاستيلاء على صفد ، وسلطان فرسان القديس يوحنا بالاستيلاء على الكرك .

كل هذه العوامل من قوة سلطان المماليك ، والفتوحات التى استطاعوا أن يثبتوا بها للعالم الإسلامى أنهم أهل للاضطلاع بذلك العبء الذى هيأتهم الاقدار للاضطلاع به كان له أثر غير قليل فى نفس الشاب ابن تيمية يومذاك ، وكان له أكبر الآثار فى توجيه آرائه السياسية نحو هذه الأقليات ونحو الباطنية بوجه خاص .

ولم ينس المماليك أن يدخلوا فى سياستهم حماية الحرمين الشريفين حتى يضفوا على سلطانهم شيئا من التقديس فوق وجود الخليفة .

وإنما عرضنا لهذا القدر من الحياة فى عهد المماليك لنكون على بينة عند البحث عن آراء ابن تيمية السياسية وآرائه الكلامية ضد المسيحيين وطوائف المبتدعة ، وقد شاهد عظمة الدولة ، وأدرك فى شبابه روعة انتصاراتها على المغول والافرنج والدروز والنصيرية وغيرهم من الشيع .

فلم يعد ينقص المماليك شىء مما كان للأيوبيين من عطف على الدين

وحماية بيضته والدفاع عن حرم المسلمين ودار الاسلام . وقد شهد الاسلام فى عهد المماليك لونا من ألوان السلطان وأبهة الملك واتساع الرقعة لم يشهده فى أى عصر آخر بعد عصر الازدهار العباسى ، ورأى ابن تيمية أمبراطورية اسلامية تخفق أعلامها على مصر والشام والحرمين وبلاد النوبة

ولكن هذه العظمة كان يعكر صفوها فى بعض الأحايين بعض الآراء المضطربة أو الاختلاف بين رجال العلم ، أو الضجيج من رجال الصوفية (وقد كانت طائفة لها خطرها) وأدرك ابن تيمية ما فى هذه الطائفة من خطر على الاسلام وعقائده إن تأثرت بعقائدهم المتطرفة التى لا تجمعها بالاسلام وشيجة من فكر أو لحمة من سند ، وقد كان أحد أبطال هذه الطائفة الشيخ نصر المنبجى أثيرا عند الظاهر بيبرس ، لايرى الا ما يراه ، وكان للناس آراء فى ابن عربى وابن الفارض لم يرض عنها فقيهنا السلفى ابن تيمية وكانت موضع ثورته وغضبه كما سنعرض له فيما بعد .

وسترى أن ابن تيمية تأثر بهذه البيئة من جميع نواحيها تأثراً ستلمحه عند الكلام على آرائه السياسية والعلمية والدينية ، وأنه غمر بهذا المحيط الذى بهره ولو أنه ثار عليه أحيانا وانتقده انتقاد الرجل المثالى الذى كان يرى ألا حكم إلا لله ، وأن الجماعة يجب أن تتكون على النحو الذى شرعه الله ، فله فى الدين رأى ، وله فى الدولة رأى ، وله فى الصوفية رأى ، وله فى رجال

الكلام ، وخاصة الأشاعرة، رأى ، وله فى المسيحية والباطنية رأى ، فلا عجب أن أنتجت هذه العقلية الخصبة ذلك النتاج الجبار فاستحقت مايقوله الثعالبى فى المتنبى - (ملأ الدنيا وشغل الناس) . فمن منتصر ومن طاعن ، ومن مادح ومن ذامّ ، ومن معترف ومن منكر ، ولكنه سار لا يبغى إلا رضاء الله غير حاسب للناس حسابا . ولعل هذا هو عيب ابن تيمية الذى صدمه بالحقيقة المرة وجعله طريدا من سجن إلى سجن لا يطلقه قاض حتى يأمر بسجنه قاض ولا ترسله قلعة حتى تضمه أخرى . عاش للحق . ومات شهيد الحق

فمن هو ابن تيمية ؟

ابن تيمية

هو إمام الأئمة ، ومفتى الأمة ، شيخ الإسلام بحر العلوم ، وسيد الحفاظ ، وفارس المعانى والألفاظ ، فريد العصر ، بركة الأنام وعلامة الزمان ، وترجمان القرآن ، أعلم الزهاد ، وأفضل العبَّاد ، قامع المبتدعين ، وآخر المجتهدين ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن شهاب الدين عبد الحليم بن شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام بن أبى محمد عبد الله بن أبى القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن على بن عبد الله بن تيمية الحرانى .

ولد ابن تيمية بحران يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١ ، ورحل والداه به و باخوته إلى الشام عند قدوم التتار ، وأَسْرَوا بليل إلى دمشق ، وكاد العدو يلحق بهم وهم فى اضطراب النقلة لولا أن الله قدر ـ لخير الإسلام والعلم والدين ـ أن تنجو هذه الأسرة ليكتب تاريخ الإسلام لهم صفحة ناصعة فى خدمته ، والقيام على رعايته .

كان ابن تيمية أحد أفراد عائلة اشتهرت كابرا عن كابر بالعلم والخطابة والوعظ وخدمة القرآن والقيام على السنة وكان فيها الكثير من العلماء والوعاظ و بذلك ترى أن ابن تيمية سليل بيت قام على العلم وخدمة الدين ، فلا عجب أن يكون ابن تيمية من عرفناه .

وهل ينبت الخطىّ إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل

وأن يترك لنا هذه الآثار فى شتى نواحى الثقافة الإسلامية فى التشريع والنظريات السياسية ، وفى الفقه والأصول ، والتصوف ، ولم يترك ابن تيمية ناحية من نواحى الثقافة الإسلامية الا وقد كتب فيه وكان لهذه الكتابات كما كان للاضطهاد الذى عاناه ابن تيمية أثر بالغ فى تقدير الناس له وعطفهم عليه .

نشأ ابن تيمية فى دمشق بعد ما رحل أهله عن حران عش الصابئة والفلاسفة ، ودمشق يومذاك وحلب المدينتان الهامتان فى سوريا . ودمشق العاصمة الثانية لامبراطورية المماليك وكثيرا ما كان سلاطينهم وخاصة بيبرس يقيمون بها .

كان فى دمشق المدرسة العمرية مدرسة الحنابلة الكبرى فى الصالحية أنشأها الشيخ أبوعمر بن قدامة ووقفها على أهل القرآن والفقه وصارت مدرسة وسكنا للعلماء وفيها تخرج أعيان مذهب أحمد .

وقد كان للحنبلية فى دمشق — مع هذا — شأن قبل تأسيس هذه المدرسة إذ قام على نشر مذهب أحمد فيها الشيخ أبو الفرج عبد الواحد شيخ القاضى أبى يعلى الكبير . وفى سنة ٥٥١ هـ وفد إلى دمشق بنو قدامة فارين من وجه الصليبيين وكان الأخوان أبو عمر وموفق الدين شيخى مذهب أحمد فى دمشق وفى الموفق يقول ابن تيمية (لم تر الشام بعد الأوزاعى مثل الموفق) .

وكان لبنى قدامة بوجه عام فضل القيام على خدمة مذهب الحنابلة . ولما أراد الظاهر بيبرس إصلاح نظام التقاضى فى مصر وتعيين قاض للقضاة من كل مذهب من المذاهب الأربعة عين أحدهم القاضى شمس الدين بن قدامة وبقى قاضيا للقضاة من سنة ٦٦٤ — ٦٧٦ هـ .

وكان فى دمشق غير المدرسة العمرية مدارس للحديث وراءها مثل المدرسة النورية والأشرفيـة فى الشام كما كان فى مصر المدرسة الكاملية وكان للحنابلة مدارسهم الخاصة فى الحديث مثل المدرسة الجوزية والسكرية التى تخرج فيها ابن تيمية كما تخرج فيها والده من قبل .

كان يجلس للتدريس فى تلك المدارس والمساجد جلة العلماء أمثال الشيخ ابن دقيق العيد والمزِّى والزملكانى فازدهرت بذلك دراسة الحديث ، وعلومه وبدأ الناس يدرسون الصحاح من كتب الحديث وينقدُون ويصححون ، ويُعلِون ، ويَعْمِدون لدراسة الرجال ويبينون للناس قيمتهم ، وما من شك

فى أن دراسة الحديث ورجاله على هذا النحو والإقبال عليه قد طبع الحياة العامة بالمحافظة وكراهة الابتداع، والميل إلى آراء السف، خصوصا بعدما فرض الأيوبيون مذهب الأشاعرة ومذاهب الأئمة المعترف بهم فرضا على جماعة المسلمين. قال المقريزى: « لما ملك السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب ديار مصر كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس على هذا المذهب ـ يعنى الشافعى ـ قد نشآ عليه منذ كانا فى خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى فى دمشق، وحفظ صلاح الدين فى صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالى مسعود بن محمد النيسابورى، وصار يحفظها صغار أولاده فلذلك عقدوا الخناصر، وشدوا البنَانَ على مذهب الأشعرى، وحملوا فى أيامهم كافة الناس على التزامه، فتمادت الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بنى أيوب ثم فى أيام مواليهم المماليك من الأتراك، وكذلك فعل ابن تومرت فى المغرب بعد أن أخذ عن الغزالى مذهب الأشعرى، وكان هذا هو السبب فى انتشار مذهب الأشعرى فى الأمصار حتى لم يبق مذهب يخالفه إلا أن يكون مذهب ابن حنبل فانهم كانوا على ما عليه السلطان ».

وكان لمذهب الأشعرى من الناحية السياسية أثره فى ربط الجماعة برباط الطاعة والخضوع للسلاطين باعتبارهم أولياء أمر تجب طاعتهم، لأن فيها

طاعة الله ورسوله وقت أن كانت مذاهب المبتدعة وخاصة الشيعة مدعاة للثورة دائما لما فيها من عناصر الاضطراب نتيجة للتطلع لأمام منتظر يملأ الدنيا عدلا ، ويعفى على هذا الجور الذى تعج به الحياة الإسلامية ، وكان ذلك مسوغا دائما للخروج على ظلمة السلاطين والجائرين من الملوك .

كان الحنابلة بمفردهم يكونون معسكرا مستقلا يناهض معسكر الأشاعرة والماتريدية ، ولم تكن العلاقات بين المعسكرين تسير دائما على نحو مرض خصوصا بين المتطرفين والغلاة من المعسكرين . وكانت بساطة مذاهب الحنابلة ، وبعدهم عن دقائق التأويل ومعقدات التخريج تجعله دائما سهلا مستساغا محببا لنفوس الجماعات التى كان ذلك اللون الراقى من ألون التفكير يسمو على إدراكها ، ويشب عن قدرتها حتى كاد النزاع يكون فى الواقع نزاعا بين طبقتين .

ولم يتوان الأشاعرة عن استعمال سلاح التكفير والتفسيق فى شتى المناسبات حتى بلغ الأمر حدا فصل الحنابلة كفرقة تُلَزّ فى قَرَنٍ مع النصارى واليهود والباطنية . وقد كتب منشى المدرسة الرواحية فى دمشق فى حجة وقفيته لهذه المدرسة نصا يمنع دخول اليهود ، والمسيحية ، والحنابلة ، لهذه المدرسة .

وكان الأشاعرة يرمون مرة خصومهم بالعجز عن إدراك دقائق المذاهب

الـكلامية ، وبالتجسيم والحشو ، ومرة بالثورة والعصيان ، حتى يكون ذلك منفذا لاستعداء السلاطين والأمراء عليهم .

وفوق هذا فقد كان الصوفية المغالون يكونون طبقة أشبه بالعاطلين منهم بالعلمـاء ، يقطنون الزوايا ، والرباطات ، والخوانق ، وللأمراء فيهم اعتقاد لا يعدله اعتقاد مما كان سببا لتذمر كثير من أحرار العلماء غـير ابن تيمية ، وكان كثير من آرائهم لا يقبله عقل السلفيين من الحنابلة إذ كيف يقبل هؤلاء آراء ابن عربى والحلاج وابن سبعين فى الحلول ، ووحدة الوجود ، أو إدراك المعلومات عن طريق التجلى والفيض .

وفى دمشق الرفاعيـة ، وفى حلب فرع من فروعهم وهم الحريرية ، وفى بغداد طائفة الجيلانية أتباع سيدى عبد القادر الجيلانى الذى كان رفيع المنزلة فى نظر ابن تيمية ، ولم تقصر مصر وهى ملتقى الشرق والغرب عن الشام فى هـذا المضمار ، ففيها الشاذلية وفيهـا تلميذ أبى الحسن الشاذلى ابن عطاء الله الاسكندرى الذى كان من أشد خصوم ابن تيمية وكثير غير هؤلاء ممن ترى لهم ذكرا فى فتاوى ابن تيمية من طائفة القلندرية والملامية .

بدأ ابن تيمية حياته اذن فى وسط ذلك الجو الصاخب من شتى نواحيه سواء أكان فى الفقه ، أم الـكلام ، أم السياسة ، أم التصوف ، وليس ثمة ميدان هادئ يبعث رجلا ناشئا مثل ابن تيمية (عاش فى أسرة سلفية وتخرج

فى جو سلفى) على أن يهدأ ، خصوصا وقد كان له أعصاب غير عادية كما حدث عنه كثير من أصدقائه .

حفظ ابن تيمية القرآن واشتغل بالحديث على شيوخ عديدين ، وسمع المسانيد وصحيحى البخارى ومسلم وجامع الترمذى والسنن، وقرأ كتب الطبقات وتعلم الخط والحساب ، وقرأ العربية وكتاب سيبويه ، وأقبل على التفسير حتى حاز فيه مرتبة لا تعدلها مرتبة وأحكم أصول الفقه كل هذا وهو لما يعد التاسعة عشرة من عمره حين قام مقام والده وقد قال فيه ابراهيم الرقى (وقد رآه علما فى هذه السن المبكرة وقد طلع فى سماء المعارف قمرا تماما) : (الشيخ تقى الدين يؤخذ عنه ويقلد فى العلوم ، فإن طال عمره ملأ الأرض علما وهو على الحق ولابد من أن يعاديه الناس لأنه وارث علم النبوة) . نبوءة ما أصدقها أن تمثل لنا حياة ابن تيمية .

بلغ ابن تيمية كل هذا وهو لما يعد بضع عشرة سنة ، وجلس مجلس والده وسنه إحدى وعشرون سنة . ولم يكن ابن تيمية بدعا فى أسرته فمن قبله أبوه وجده وقد قال الذهبى فى أبيه : « كان إماما محققا كثير الفنون وإنما اختفى من نور القمر وضوء الشمس » يشير إلى أبيه وابنه .

وسواء صحت الروايات التى نقلت عن سرعة حفظ ابن تيمية من صباه

فى الكتاب أم لم تصح ، فالذى لا شك فيه أن ابن تيمية كان نادرة زمانه فى قوة حافظته ، وحسبك أن تعلم أن كثيرا من رسائله ألفها وهو فى السجن أو فى الطريق بعيدا عن المراجع والمصادر، ولم يعوز هذه الرسائل أدلة ولا نصوص من كتاب الله ، وحديث رسول الله ، وآراء أصحاب رسول الله ، وآراء الفقهاء وعلماء الكلام ، وقد ألف رسالته الحموية الكبرى فى السجن أملاها بين الظهر والعصر وكانت عجبا فى توضيح عقائد السلف فى الصفات .

نشأ ابن تيمية فى بيت علم وفى حجور علماء وفى بيت زهد وفى وسط زهاد ، فقد كان أحد أجداده الأعلين من كبار الزهاد أو من الأبدال (كما يقال) فطبيعى أن يشب عالمنا الجليل فى أحضان ثقافة وتقوى لا يلوى إلى غير الدرس والاشتغال ، وأخذ نفسه بالعظيمات من الأمور وقافا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه ، وأن يضرب بسهم فى كل فن ويغنى على كل وتر ويقول العمرى (هو نادرة العصر هو البحر من أى النواحى جئته هو البدر من أى الضواحى رأيته قطع الليل والنهار دائبين واتخذ العلم والعمل صاحبين إلى أن أسر السلف بهداه ونأى الخلف عن بلوغ مداه جاء فى عصر مأهول بالعلماء مشحون بنجوم السماء تموج فى جوانبه بحور خضارم وتطير بين خافقيه نسور قشاعم إلا أن شمسه طمست تلك النجوم وبحره غرق تلك العلوم ثم عبثت له

الكتائب فحطم صفوفها وخطم أنوفها وابتلع غديره المطمئن جداولها واقتلع طوده المرجحن جنادلها وأخمدت أنفاسهم ريحه وأكمدت شرارتهم مصابيحه

تقدم راكبا فيهم إماما ولولاه ما ركبوا وراءه

ترد اليه الفتاوى فلا يردها وتغدو عليه من كل وجه فيجيب عنها بأجوبة كأنه كان قاعدا لها يعدها) .

ولقد حدث هو عن نفسه بأنه ليقف خاطره فى المسألة والشىء أو الحالة التى تشكل عليه فيستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل حتى ينشرح صدره ، وينجلى إشكال ما أشكل ، ويكون إذ ذاك فى السوق أو المسجد أوالدرب أو المدرسة لايمنعه ذلك من الذكر أو الاستغفار حتى ينال مطلوبه ، قال أحد أصحابه ولقد كنت فى تلك المدة لأول النشأة إذا اجتمعت به فى ختم أو مجلس ذكر خاص مع أحد المشايخ المذكورين وتذاكرنا وتكلم مع حداثة سنه أجد لكلامه صولة على القلوب وتأثيرا فى النفوس وهيبة مقبولة ونفعا يظهر أثره وتنفعل له النفوس التى سمعته أياما كثيرة حتى كان مقاله بلسان حاله وحاله ظاهر من مقاله شهدت ذلك منه غير مرة .

ولقد كان من الطبيعى لعالم كهذا نشأ فى النشأة التى أسلفنا من أمرها ما أسلفنا أن يكون شجى فى حلوق مخالفيه والخارجين على ماورث الناس

من السنة الصحيحة التى لم يعكر صفوها ما دخل عليها من سفسطة علماء الكلام ، وألوان الفلسفة الدخيلة ، وإن أتقن بعضهم فناً فقد أتقن ابن تيمية غير فن ، وإن حاجوه بحديث أنجدوا فى فهمه وأتهموا حاجهم بأحاديث واضحة المعنى ظاهرة الدلالة ، يشرق عليها نور النبوة ، وإن حاجوه بفهم حاجهم بأفضل منه ، وإن نقلوا له قولا من مذهب نقل لهم من ذلك المذهب أقوالا ليس لهم بها سابق عهد ولم يعلم أنه ناظر أحدا فانقطع أو ماراه أحد فراه ويقول الذهبى « وله خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث وبالعالى والنازل والصحيح والسقيم مع حفظه لمتونه الذى انفرد به ، فلا يبلغ أحد فى العصر رتبته ولا يقاربه ، وهو عجب فى استحضاره واستخراج الحجج منه ، واليه المنتهى فى عزوه الى الكتب الستة ، والمسند وكل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث وأما التفسير فمسلم اليه وله فى استحضار الآيات من القرآن وقت إقامة الدليل بها على المسألة قوة عجيبة وإذا رآه المقرئ تحير فيه ، ولفرط إمامته فى التفسير وعظمة اطلاعه يبين خطأ كثير من أقوال المفسرين ويوهن أقوالا عديدة وينصر قولا واحدا يوافق ما دل عليه القرآن والحديث »

لم تقف هذه الشهادة لإمامنا الجليل على أصدقائه ، بل كان خصومه يعرفون له هذه الميزة ويعرفون فضله كما يعرفون أبناءهم ويجعلون من حنبليته

ـ كما كانوا يسمونها ـ ومن عقيدته سببا للطعن أو التشهير رغم أنه نازلهم وبارزهم فلم يستطع واحد منهم أن يصمد له أو يصيب منه مقتلا فى دين أو عقيدة .

وحارب تلك الطوائف التى كانت تنتسب الى التصوف والتصوف إذ ذاك نوع من الدجل والتهويش أو المخرقة والشعوذة كما سنعرض له إن شاء الله عند الكلام على مناظرته للصوفية تلك المناظرة التى كتب فيها إحدى رسائله الموسومة (بمناظرة ابن تيمية العلنية لدجاجلة البطائحية الرفاعية) فاستعانوا عليه بذوى الضغن وأوصلوا أمره للأمراء أو كما يقول الذهبى (وأعمل كل منهم فكره فكتبوا محاضر وسعوا به بين الأكابر)

بلغ ابن تيمية رتبة الاجتهاد ، واجتمعت فيه شروط المجتهدين ، وكان له على ما يقال شيء من النظم اليسير فى صغره ولكننا نظن أن هذه العقلية فى مزاجها الفقهى والأصولى لم يكن لينتظر منها الانتاج فى ناحية الخيال الشعرى وكان يعانى فى بعض الأحايين شيئا من النظم العلمى فى الإجابة عن بعض الأسئلة أو فك بعض الألغاز والأحاجى ؛ كما قيل عنه إنه سئل مرة نظما فى لغز عن الأسد فأجاب حالا بقصيدة له من مائة بيت أو تزيد على هذا اللغز .

شغف ابن تيمية بتفسير كتاب الله وقد قيل إن ما جمع ابن تيمية فى تفسير كتاب الله قد بلغ نحوا من ثلاثين مجلدا ، بيض أصحابه بعضها وتركوا البعض الآخر لم يكتب، أو كتب وضاع فى فتن ابن تيمية ، وقد كان مضطهدوه يبحثون عن كل ما كتب ليحرقوه . وقال ابن عبد الهادى لما حبس تفرق أتباعه وتفرقت كتبه وخوفوا أصحابه من أن يظهروا كتبه فذهب كل أحد بما عنده وأخفاه ، ولم يظهروا كتبه فبقى هذا يهرب بما عنده وهذا يبيعه أو يهبه وهذا يخفيه و يودعه حتى إن منهم من تسرق كتبه ، أو تجحد فلا يستطيع أن يطلبها ولا يقدر على تخليصها ، و يقول ابن تيمية عن نفسه: « ربما طالعت على الآية الواحدة مائة تفسير ثم أسأل الله الفهم وأقول : يا معلم آدم و إبراهيم علمنى ، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها وأمرغ وجهى فى التراب وأسأل الله تعالى وأقول : « يا معلم إبراهيم فهمنى »»، وأذكر قصة معاذ بن جبل وقوله لمالك بن يخامر لما بكى عند موته وقال إنى لا أبكى على دنيا كنت أرقبها منك ولكن أبكى على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك،فقال : إن العلم والإيمان مكانهما،من ابتغاهما وجدهما فاطلب العلم عند أربعة فإن أعياك العلم عند هؤلاء فليس هو فى الأرض فاطلبه من معلم إبراهيم . وهذه القصة تعطيك صورة عن الحالة النفسية والأعصاب المجهدة من ابن تيمية وما كان يعترضه من أزمات نتيجة الإجهاد والسعى وراء ضالته العلمية .

وابن تيمية كما يقول عبد الله بن رشيق أخص أصحابه ، وأكثرهم كتابة لكلامه ، وحرصا على جمعه : (كان يكتب نقول السلف مجردة عن الاستدلال على جميع القرآن ، وكتب فى أوله قطعة كبيرة بالاستدلال وكان يكتب تفسير بعض آيات للتذكر ، ولما حبس فى آخر عمره كتبت إليه أن يكتب على جميع القرآن تفسيرا مرتبا على السور فكتب إلى يقول : إن القرآن فيه ماهو بين بنفسه ، وفيه ماقد بينه المفسرون فى غير كتاب ، ولكن بعض الآيات أشكل تفسيرها على جماعة من العلماء فربما يطالع الإنسان فيها عدة كتب ولا يتبين له تفسيرها وربما كتب المصنف الواحد فى آية تفسيرا ويفسر غيرها بنظيره ، فقصدت تفسير تلك الآيات بالدليل وإذا تبين معنى آية تبين معنى نظائرها وقد فتح الله علىّ فى هذه المرة من معانى القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنونها ، وندمت على تضييع أكثر أوقاتى فى غير معانى القرآن .

وكان لابن تيمية آراء فى بعض المفسرين السابقين ؛ فكان يقدم مجاهدا ويقول عنه : إنه إمام التفسير . ولم يكن رأيه فى شيخ مفسرى السلف الطبرى سيئا كما يرى بعض الحنابلة لأن ابن تيمية كان يعد الطبرى من المفسرين الذين يجنحون فى تفسيرهم للقرآن إلى النقل على النهج الذى كان يجنح إليه ابن تيمية ، وكان للحنابلة بوجه عام رأى غير هذا فى الطبرى قال ياقوت فى كتا

« معجم الأدباء » : (لما قدم الطبرى إلى بغداد من طبرستان بعد رجوعه إليها تعصب عليه أبو عبد الله الجصاص وجعفر بن عرفة والبياضى وقصده الحنابلة فسألوه عن أحمد بن حنبل فى الجامع يوم الجمعة ، وعن حديث الجلوس على العرش فقال أبو جعفر :

أما أحمد بن حنبل فلا يعد خلافه ، فقالوا له : فقد ذكره العلماء فى الاختلاف فقال : ما رأيته روى عنه ولا رأيت له أصحابا يعول عليهم . وأما حديث الجلوس على العرش فمحال ثم أنشد :

سبحان من ليس له أنيس ولا له فى عرشه جليس

فلما سمع ذلك الحنابلة منه وأصحاب الحديث وثبوا ورموه بمحابرهم ، وقيل كانت ألوفا فقام أبو جعفر بنفسه ، ودخل داره فرموا داره بالحجارة حتى صار على بابه كالتل العظيم وركب نازوك صاحب الشرطة فى ألوف من الجند يمنع عنه العامة ، ووقف على بابه يوما إلى الليل وأمر برفع الحجارة عنه وكان قد كتب على بابه البيت السابق فأمر نازوك بمحو ذلك وكتب مكانه بعض أصحاب الحديث :

لأحمد منزل لا شك عال إذا وافى إلى الرحمن وافد
فيدنيه ويقعده كريما على رغم لهم فى أنف حاسد
على عرش يغلفه بطيب على الأكباد من باغ وعاند

له هــذا المقام الفرد حقا   كذاك رواه ليث عن مجاهد

نخلا في داره وعمــل كتابه المشهور فى الاعتذار إليهم ، وذكر مذهبه واعتقاده ، وجرح من ظن فيه غير ذلك وقرأ الـكتاب عليهم ، وفضل أحمد ابن حنبل ، وذكر مذهبه وتصويب اعتقاده ولم يزل فى ذكره إلى أن مات .

ولم يكن رأى الطبرى فى العقائد بوجه عام يخالف ما يراه ابن تيمية وخاصة فى مسائل الآيات المشتبهة .

وقد سئل ابن تيمية عن أى التفاسير أقرب إلى الـكتاب والسنة فقال : أما التفاسير التى بأيدى الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبرى فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل ابن بكير والـكلبى و بعد أن ذكر رأيه فى الزمخشرى و بين أن تفسيره محشو بالبدعة وعلى طريقة المعتزلة قال إن تفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشرى لـكن تفسير ابن جرير أصح من هذه التفاسير كلها .

وكان حب ابن تيمية للحديث ودراسته ونقده موضع الإعجاب عنــد كثير من دارسى ابن تيمية خصوصا مع هــذه الروح الحرة فى التفــكير ، وطبيعى أن يكون ابن تيمية مولعا أشد الولع بمؤلفات الإمام أحمــد ولم يكن للبخارى ولا مسلم عنــده من المكانة ما لأحمــد رغم استشهاده فى كثير من عقائده بأحاديث البخارى وكان لابن تيمية ملـكة خاصة فى نقد الأحاديث

وخاصة مايتعلق بأسانيدها وقد قال صفى الدين الحنفى فى ترجمته لابن تيمية : ولقد سئل ابن تيمية يوما عن حديث التحليل فلم يزل يورد فيه وعليه حتى بلغ كلامه فيه مجلدا كبيرا وقل أن يذكر له حديث أو حكم إلا وقطع عليه يومه أجمع) وما من شك فى أن هذا المحصول الوافى من الحديث ، وشدة النقد لرجاله ، والقدرة على التوفيق بين مختلف الحديث ، والتعمق فى فهم معانيه كان له أبلغ الأثر فى تكوين عقيدته وفى توجيهه تلك الوجهة المعروفة فى التشريع . ولم ينقل لنا من مؤلفات ابن تيمية مؤلف خاص فى الحديث غير الأربعين التى خرجها له المحدث أمين الدين الوانى الحنفى وقال عنها إن ابن تيمية شرحها فى المسجد الجامع فى دمشق وشرحها فى المدرسة السكرية ابن النحاس والذهبى .

وللحنبلية أثر غير قليل فى تكوين آراء ابن تيمية سواء أكان من ناحية العقيدة أم من ناحية الفقه وابن تيمية نفسه — وإن كان قد بلغ رتبة الاجتهاد كما أطبق على ذلك كل ترجم له حتى من خصومه — كان يترسم خطى الإمام أحمد ، ويعتقد أنه الإمام الحق الذى يستحق وافر التقدير والإجلال من ناحية الفقه ، ومن ناحية العقائد ، وهو يقول فى كتابه مذهب السلف القويم فى تحقيق مسألة كلام الله الكريم فى سياق الرد على من اتهم الإمام أحمد بمداراة الناس على حساب دينه (وأما قول القائل إن أحمد

قال ذلك خوفا من الناس فبطلان هـذا القول يعلمه كل عاقل بلغه شيء من أخبار أحمد وقائل هذا هو إلى العقوبة البليغة أحوج منه إلى جوابه لافترائه على الأئمـة ، فإن الإمام أحمد صار مثـلا سائرا يضرب في المحنـة والصبر على الحق ، فإنه لم يكن يأخذه في الله لومة لائم حتى صارت الإمامة مقرونة باسمه في لسان كل أحد فيقال قال : الإمام أحمد ، وهذا مذهب الإمام أحمد لقوله تعالى «وجعلنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لما صَبَرُوا وكانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ» فإنه أعطى من الصبر واليقين ما نال به الإمامة في الدين ، وقد تداوله ثلاثة خلفاء يسلطون عليه من شرق الأرض إلى غربها ، ومعهم من العلماء والمتكلمين والقضاة والوزراء والسعاة ، والأمراء والولاة ، ما لا يحصيه إلا الله ، فبعضهم تسلط عليه بالحبس وبعضهم بالتهديد الشديد وبعضهم يعده بالقتل وغيره من الرعب وبعضهم بالترغيب في الرياسة والمال ، وبعضهم بالنفي والتشريد من وطنه وقد خذله في ذلك أهـل الأرض حتى أصحابه العلماء والصالحون ، وهو مع ذلك لا يجيبهم إلى كلمة واحدة مما طلبوا منه وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة ، ولا كتم العلم ولا استعمل التقية ، بل قد أظهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن آثاره ما دفع به البدع المخالفة لذلك مما لم يتأت لعالم من نظرائه .

ومذهب أحمد قد جمع فى نظره خصائص المذاهب الأخرى فوق ما جمع من ركون للحديث واعتماد عليه وهـذه التطورات التى حدثت خلال العهد الطويل الذى فصـل عصر ابن تيمية عن عصر الإمام أحمـد لم تغير رأيه فى الحنبلية واعتقاده أنها المذهب الذى يمثل خصائص الإسلام فى عصره الأول قبل أن تشوهه الآراء الجزيئة وحيل بعض الفقهاء الغريبة عن روح الإسلام ونصه ولهذا تجد ابن تيمية كثير الاعتماد على ما كتبه أحمد فى كتاب المسند والسنة وعلى رسائله التى يرد بها على الجهمية وعلى كتبه فى الأخلاق ككتاب الزهد وكتاب الورع . ولم يكن مذهب أحمد مجموعا جمعا قانونيا فى حياته فقد كان الغالب عليه وعلى أصحابه رواية الحديث ولم يكن يجرى على طريقة الفقهاء فى التفريع والتأصيل وتبيين مناط الأحكام والتعليل حتى قلت انفراداته فى الفروع عمن تقدمه من الفقهاء فإن خالف الشافعى مثلا فى شىء من قوله تراه يوافق فيه أبا حنيفة أو أحد أصحابه أو مالـكا فكان أصحاب كتب الخلاف يستغنون عن ذكر أقوال أحمد بذكر خلاف من تقدمه من الفقهاء ولم يذع تدوين أقواله مع أقوال بقية الفقهاء فى كتب الخـلاف إلا فى عهد ابن هبيرة الوزير فإنه لمـا ألف افصاحه وخص من بين مجلداته مجـلدا ضخما باختلاف الأئمة الأربعة وسعى فى نشره بالمبالغ الطائلة أخـذ من يكتب فى الخـلاف يذكر أقوال أحمد مع أقوال غيره من الأئمة وقد أدرك ابن جرير أحمد وأصحابه

ولـكن لم يذكر أقواله فيما كتبه فى اختلاف الفقهاء مع ذكره من كان يقصر دون مرتبة أحمد محتجا بأن أحمـد لم يكن من الفقهاء وإنما كان من رجال الحديث وأنه ليس لأحمد أصحاب يؤخذ عنهم فثار عليه الحنابلة ثورتهم التى ذكرها ياقوت فى معجم الأدباء .

ولـكن كثيراً من تلاميذه عمدوا إلى جمع آرائه وفتاويه . وحاول ابن تيمية أن يجعل من نقول هؤلاء العلماء وآرائهم وسيلة لتنظيم مذهب أحمد على نحو لا يجعله مجمعا تجميعا ينسى الناس المصادر الأولى كما فعـل ابن قدامة الذى لم يكن له ولا لأبى يعلى ولا الخرقى ذلك التقدير الذى يعطيه ابن تيمية لأبى بكر الخـلال الذى يقول عنـه فى كتابه الإيمان : إن كتاب السنة للخلال أوفى كتاب جمع كتب أحـمد فى الفصول الدينية كما أن كتابه العلم أجمع كتاب يذكر فيه أقوال أحـمد فى مسائل الأصول الفقهية . وكان ابن تيمية يتابع الإمام أحمد فى وجوب الحذر فى تفهم معانى أدلة الألفاظ الشرعية ، ويقول مع أحمد : يجب أن يحذر المتـكلم فى الفقه هـذين الأصلين المجمل والقياس ويقول : أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس فلا يحكم بما يدل عليه العام والمطلق قبل النظر فيما يخصه ويقيده ، ولا يعمل بالقياس قبل النظر فى دلالة النصوص هل تدفعه . فإن أكثر خطإ الناس إنما يجىء من تمسكهم بما يظن أنه من دلالة اللفظ والقيـاس . وآثار ابن حنبل وأصحابه واضحة

عند ابن تيمية كل الوضوح فى ركونه للنقل أكثر من الرأى ومناداة المسلمين بالرجوع الى كتاب الله وسنة رسوله قبل أن يرجعوا للرأى أو العقل . وفتح باب الاجتهاد. كذلك كان أثره عليه فيما يتعلق بعقيدته فى الأخلاق وآرائه فيها وقد بيَّن ابن تيمية مبادئه العامـة فى الأخلاق فى كتابه التحفة العراقيـة فى الأعمال القلبية. وثمة أثر بارز من آثار أحمد على ابن تيمية، وهو محاولة التحلل من الربقة التى وضعها بعض الفقهاء من التقييد بحرفيـة النص دون الرجوع الى الروح التى أملتـه ، والظروف التى أحاطت به ، وقد أعطى ذلك ابن تيمية شيئا كثيرا من الحرية ، بـل والجرأة فى آرائه ، والخروج عن ذلك الجمود الذى كان سائدا يومذاك والذى أذهب كثيرا من جلال الفقه الإسلامى وبهائه وقد ظهر أثر هذا بارزا فى آرائه فى نظام الجماعة الإسلامية بل وفى بعض النصوص الواردة فى بعض العقوبات كما يوضحه كتابه فى السياسة الشرعية كذلك ظهرت آثار هـذه الحرية فى آرائه الاقتصادية وأصول المعاملات وقد بيَّن للناس فى رسالتـه (الحـلال) الأصول التى يجب أن يتبعها الناس فى معاملاتهم وينحى باللائمة على أولئك الفقهاء والمتصوفة الذين أرادوا نوعا من الورع أفرطوا فيه بغير دليل شرعى حتى كاد يقلب وجوه المعاملات ، ويصم الجماعة الإسلامية بأنها تتعامل فى غير حل وتعيش فى غير حل

وآراء ابن تيمية بوجه عام فى الكلام ومسائله ، وهو القسم الذى عنّى نفسه به طوال عمره آراء سداها ولحمتها النقل والتقدير لآراء السلف الذين حرصوا على نقل الدين الينا خالصا من كل شائبة ورأى أن ذلك أفضل وسيلة للدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد خصومها من اليهود والنصارى ، والمبتدعة والروافض والباطنية . فابن تيمية فى الواقع لم يدع فريقا من هؤلاء إلا حاجه ورد عليه . فالظروف الاجتماعية ، والسياسية والدينية على النحو الذى أسلفناه دفعت ابن تيمية وهو السلفى الغيور على سلفيته أن يحاج كل أولئك .

وقد كان من وجود الصليبيين ، واصطدام المسلمين بهم فى الشام ، واصطدام المسلمين بالباطنية أيام فتنة المغول ، واشتراك ابن تيمية فى الجهاد ضد هؤلاء وأولئك ما سهل لابن تيمية أكثر من غيره ممن لم يشهدوا هذه الحقبة أن يعرف عقائدهم بالتفصيل وهو — فى اعتقادى — فى هذه الناحية حجة لا يعدلها حجة فى نقل عقائد المسيحيين (بشتى أنواع فرقهم) التى ولدتها اختلافاتهم ، والمجامع المسكونية التى انعقدت للوصول الى نتيجة حاسمة فيما يتعلق بهذه الخلافات . وكتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) برهان ناطق على معرفة ابن تيمية بالعقائد المسيحية يوم ذاك ، وحذق أصولها ومراجعها والفرق التى انقسمت اليها ورأى كل فرقة وكذلك آراء اليهود .

ولم يكن ابن تيمية يرضى بما رضى به غيره من أئمة المسلمين من نقد عقائد المخالفين عن طريق الرواية مما دعا كثيرا منهم الى الخبط فى نقل تلك العقائد ، بل كان يرويها مشافهة عمن يحاجهم ، ويتقصى هذه الآراء ليعرف مقدار معرفة من ينقل عنه لهذه الآراء وهذه مسألة كبيرة الأثر لدراسة الملل والنحل من الناحية الإسلامية ومذاهب الأمم المختلفة . وعقل ابن تيمية النافذ وطريقة نقده العقائد ومحاولة نقدها والتدليل على بطلانها بالعقل والنقل الواسع الفياض جعلت كثيرا من الدراسين للعقائد والمحاولين للرد عليها عالة على ابن تيمية فى كتبه ورسائله فى هذا الباب .

فإن عدوت هذه الناحية الى ناحية الرد على المخالفين من المسلمين له فى العقيدة مثل الأشاعرة والماتريدية و بقية الفرق التى رآها ابن تيمية إذ ذاك ، والتى رآها خارجة عن المنهج الذى يمثل السنة رأيت ابن تيمية يقف كما وقف الحنابلة من خصومهم وخاصة الأشاعرة .

درس ابن تيمية الإبانة ومقالات الإسلاميين للأشعرى . ولم تكن هذه الكتب فى نظره أكثر من كتب تمثل البدعة فى السنة إن صح هذا التعبير وهو يقول فى كتابه منهاج السنة النبوية : « إن الأشعرى كان تلميذا لأبى على الجبائى لكنه فارقه ورجع عن جمل مذهبه وان كان قد بقى عليه شىء من أصول مذهبه ، وقال بمذهب الجماعة ، وانتسب الى مذهب أهل الحديث

والسنة كأحمد بن حنبل وأمثاله ، وبهذا اشتهر عند الناس فالقدر الذى يحمد من مذهبه هو ما وافق فيه أهل السنة والحديث كالجمل الجامعة وأما القدر الذى يذم من مذهبه فهو ما وافق فيه بعض المخالفين للسنة والحديث من المعتزلة والمرجئة ، والجهمية والقدرية ، ونحو ذلك » ويحمل فى كثير من كتبه على الأشعرى ويعده متناقضا لا يعرف وجه الحق ، وأنه لم يستطع أن يصور عقائد أهل السنة على وجهها ، وأن كل همه كان منصرفا الى توضيح عقائد أستاذه الجبائى ، وأنه لم يكن قادرا على مناهضة الجهمية والمعتزلة والكلابية ، وأن الأشعرى لا يركن اليه فى أقواله وآرائه التى يبديها إلا بالمقدار الذى يتبع فيه ابن حنبل وأصحابه . وهو يقول عنه فى كتاب الإيمان « وهو دائما ينصر فى المسألة التى اشتهر فيها النزاع بين أهل الحديث وغيرهم قول أهل الحديث ، لكنه لم يكن خبيرا بمآخذهم فينصره على ما يراه هو من الأصول التى تلقاها عن غيرهم فيقع فى ذلك من التناقض ما ينكره هؤلاء وهؤلاء كما فعل فى مسألة الايمان ، ونصر فيه قول جهم مع نصره للاستثناء ولهذا خالفه فيه كثير من أصحابه ، واتبعه بعض أصحابه على نصر قول جهم فى ذلك ، ومن لم يقف إلا على كتب الكلام ولم يعرف ماقاله السلف وأئمة السنة فى هذا الباب يظن أن ما ذكروه هو قول أهل السنة لأن هؤلاء وأمثالهم لم يكونوا خبيرين بكلام السلف بل ينصرون ما يظهر من أقوالهم بما تلقوه عن المتكلمين

من الجهمية ونحوهم من أهل البدع فيبقى الظاهر قول السلف والباطن قول الجهمية . ورأى ابن تيمية فى الباقلانى عكس رأيه فى الأشعرى فهو يرى أن الأشاعرة لم يكن فيهم من قبل ولا من بعد مثله كما صرح بذلك فى رسالته العقيدة الحموية الكبرى وان كان قد جنح فى شرح العقيدة الأصفهانية الى مؤاخذته فى رأيه فى كلام الله وانه مخلوق أو غير مخلوق . وحكى انكار الاسفراينى وكثير من العلماء على الباقلانى هذا الرأى كما سنعرض له فيما بعد ان شاء الله . وابن تيمية شديد الحرص على أن يصور الأشاعرة على صورتهم التي يمكن معرفتها مما كتبوه من آرائهم نقلا عن إمامهم الأشعرى ، وهو حريص على أن يبين أن هذه الأراء التى ظن الناس أن الأشعرى فيها انما يمثل السلف الأول من علماء المسلمين ليست كما يظنون ، وأن جمهرة المتبعين للأشعرى أو الذين يمكن أن يعتبروا الممثلين الحقيقيين لمدرسة الأشعرى ليسوا على بصر بآراء السلف من الصحابة والتابعين . ولم يكن رأيه فى إمام الحرمين بأحسن من رأيه فى الأشعرى وهو يقول عنه فى كتابه بغية المرتاد فى أثناء الكلام عن الغزالى : وأما شيخه أبو المعالى فمادته الكلامية أكثر من كلام القاضى أبى بكر ونحوه واستمد من كلام أبى هاشم الجبائى على مختارات له وكان قد فسر الكلام على أبى قاسم الاسكافى عن أبى اسحق الاسفراينى ولكن القاضى هو عندهم أولى ولقد خرج عن طريقة القاضى وذويه فى

مواضع الى طريقة المعتزلة ، وأما كلام أبى الحسن نفسه فلم يكن يستمد منه وانما ينقل كلامه مما يحكيه الناس ، ثم يعرج على الرازى ليغمزه كما غمز أمام الحرمين فيقول والرازى مادته الكلامية من كلام أبى المعالى والشهرستانى فان الشهرستانى أخذه عن الأنصارى النيسابورى عن أبى المعالى ، وله مادة قوية من كلام أبى الحسن الصورى وسلك طريقته فى أصول الفقه كثيرا ، وهى أقرب الى طريقة الفقهاء من طريقة الواقفة وفى الفاسفة مادته من كلام ابن سينا والشهرستانى أيضا ونحوها . وأما التصوف فكان فيه ضعيفا كما كان ضعيفا فى الفقه ولهذا يوجد فى كلام هذا وأبى حامد ونحوهما من الفلسفة مالا يوجد فى كلام أبى المعالى وذويه و يوجد فى كلام هذا وأبى المعالى وأبى حامد من مذهب النفاة المعتزلة ما لا يوجد فى كلام أبى الحسن الأشعرى وقدماء أصحابه و يوجد فى كلام أبى الحسن من النفى الذى أخذه .والمعتزلة مالا يوجد فى كلام أبى محمد بن كلاب الذى أخذ أبو الحسن طريقه و يوجد فى ابن كلاب من النفى الذى قارب فيه المعتزلة مالا يوجد فى كلام أهل الحديث والسنة والسلف والأئمة واذا كان الغلط شبرا صار فى الأتباع ذراعا ثم باعا حتى آل هذا المآل فالسيد من لزم السنة .

وأما الغزالى فانه وان استحق بعض التقدير فى نظر ابن تيمية لما عرض له من شرح لمبادى الأخلاق الاسلامية فانه لم يسلم من نقد ابن تيمية اللاذع

فى بقية ما عرض له الغزالى من العلوم ؛ فهو غير راض عن طريقة الغزالى فى الأصول لأنه خلطه بالمنطق والجدل ، و ينقل ماذكره ابن الصلاح فى الأشياء التى أنكرت على الغزالى بقوله (منها قوله فى مقدمة المنطق فى أول المستصفى) هذه مقدمة العلوم كلها ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلا قال الشيخ أبو عمرو سمعت الشيخ العلاء بن يونس يحكى عن يوسف الدمشقى مدرس النظامية ببغداد وكان من النظارِ المعروفين انه كان ينكر هذا الكلام و يقول: فأبو بكر وعمر وفلان وفلان يعنى أن أولئك السادة عظمت حظوظهم من العلم واليقين ، ولم يحيطوا بهذه المقدمة وأسبابها والمنطق عندهم بزعمهم آلة قانونية صناعية تعصم الذهن من الخطأ وكل ذى ذهن صحيح منطقى بالطبع فكيف غفل الغزالى عن حال شيخه أمام الحرمين ومن قبله من كل أمام هو له مقدم ، لمحله فى تحقيق الحقائق رافع ومعظم ، لم يدفع أحد منهم بالمنطق رأسا ، ولا بنى عليه من تصرفاته أسا ، ثم نقل رأى المازرى المالكى الأشعرى شارح البرهان والأرشاد فى الغزالى وفى كتاب الأحياء فقال أن الغزالى كان قد خاض فى علوم وصنف فيها واشتهر بالأمانة فى أقليم حتى تضاءل له المنازعون و إستبحر فى الفقه وفى أصول الفقه وهو بالفقه أعرف وأما أصول الدين فليس بالمستبحر فيها ؛ شغله عن ذلك قراءته علوم الفلسفة وأكسبته قراءة الفلسفة جراءة على المعانى وتسهيلا للهجوم على الحقائق لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها ،

وليس لها شرع يزعها ، ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها فلذلك خامره ضرب من الأدلال على المعانى فاسترسل فيها استرسال من لا يبالى بغيره . ثم إنه كان فى هـذا الزمان المتأخر فيلسوف يعرف بابن سينا ملأ الدنيا تآليف فى علوم الفلسفة وكان ينتمى إلى الشرع ، و يتحلى بحلية المسلمين ، وأدّته قوته فى علم الفلسفة إلى أن تلطف جهده فى رد أصول العقائد إلى عـلم الفلسفة ، وتم له من ذلك ما لم يتم لغيره من الفلاسفة ، ووجـدت الغزالى يعول عليـه فى أكثر ما يشير إليه فى علوم الفلسفة حتى أنه فى بعض الأحايين ينقـل نص كلامه من غير تغيير وأحيانا يغيره و ينقله إلى الشرعيات أكثر مما نقل ابن سينا لـكونه أعلم بأسرار الشرع فعلى ابن سينا ورسائل اخوان الصفا عول الغزالى فى علم الفلسفة . والغزالى عالة على أبى حيان التوحيدى فى مذاهب الصوفية ، كما استمد من قوت القلوب لابى طالب المـكى ومن كتب الحارث المحـاسبى ومن رسالة القشيرى وأما ما سماه علوم المـكاشفة ففيها يستمد من كلام المتفلسفة وغيرهم كما فى مشـكاة الأنوار والمضنون به على غير أهـله وغير ذلك و بسبب خلطه التصوف بالفلسفة كما خلط الأصول بالفلسفة صار ينسب إلى التصوف من ليس هو موافقا للمشايخ المقبولين الذين لهم فى الأمة لسان صدق رضى الله تعالى عنهم بل يكون مباينا لهم فى أصول الإيمان و يجعلون هذه مذاهب الصوفية

كما يذكر ذلك ابن الطفيل صاحب رسالة حى بن يقظان ، وأبو الوليد ابن رشد الحفيد وابن عربى صاحب الفتوحات وفصوص الحكم وابن سبعين وأمثال هؤلاء ممن يتظاهر بمذاهب مشايخ الصوفية وأهل الطريق وهو فى التحقيق منافق زنديق .

فليس الغزالى فى نظر ابن تيمية مرضى الطريقة فى علم الكلام ولا فى التصوف لخلطه هذين الفنين بما خلطهما به من مادة فلسفية لا تمت بصلة لما ورث المسلمون من عقائد السلف الأولى المبنية على الفهم الصحيح لكتاب الله عزوجل وسنة رسوله ، وقد ظاهر ابن تيمية على الطعن على الغزالى وعلى كتاب الاحياء بوجه خاص كثير من علماء المغاربة وقد أفاض فى شرح ذلك ابن السبكى فى طبقاته عند ترجمته للغزالى . وقد كان القاضى عياض من كبار العلماء المتمسكين بالسنة ومع ذلك فقد أمر بإحراق كتب الغزالى لما توهم بها من أشياء لا ترتضيها عقائد أهل السنة . والمغاربة والمالكية منهم بوجه خاص كانوا شديدى النكير على الغزالى لأنه كان يؤثر عنه أشياء فى حق الإمام مالك رضى الله تعالى عنه .

ففلسفة الغزالى لم تكن لترضى ابن تيمية ولم يكن ليستسيغ — مهما انتحل من عذر — أن يعمد الغزالى إلى خلط الكلام بالفلسفة أو خلط التصوف بالفلسفة أو خلط الأصول بالفلسفة ولم تكن مادة الغزالى الفلسفية لترضى

هذا الطراز من المفكرين أو تنسجم مع هذا النوع من التفكير وابن السبكى يقول فى ثنايا الدفاع عن إمام الحرمين وطعن خصومه بقصور أفهامهم عن إدراك عباراته : (وربما خالف الأشعرى وأتى بعبارة عالية على عادة فصاحته فلا يتحمل المغاربة أن يقال مثلها فى حق الأشعرى) فهذه العبارات العالية وما يلابسها من مداورات هى التى جافت بين كبار مدرسة الأشاعرة و بين السلفيين من أمثال المغاربة المالكية وابن تيمية واضرابهم أضف إلى هذا أن الغزالى كان يذكر فى بعض كتبه أشياء لم يكن لها مستند معروف خصوصا فى مسائل الفروع فيظن بعض الناس أنها أثر لتفكير الغزالى الفلسفى ، ومزاجه الناتج من قراءة علوم غير إسلامية . وقد قال ابن الصلاح : ان فى الأحياء فتاوى مبناها على ما لا حقيقة له مثل ما استحسن فى قص الاظفار ، وأن يبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقية الأصابع لكونها المسبّحة ثم بالوسطى لأنها ناحية اليمين ثم باليسرى على هيئة دائرة ، وكأن الأصابع عنده دائرة فإذا أدار أصابعه مر عليها مرور الدائرة حتى يختم بإبهام اليمنى فانظر إلى هذا كيف أفاده قراءة الهندسة وعلم الدوائر وأحكامها أن نقله إلى الشرع فأفتى به المسلمين) .

ورغم ما يراه ابن تيمية فى الغزالى ومادته الفلسفية فما من شك فى أنه تأثر بشىء غير قليل من طريقته فى المناقشة فهو يستعمل أسلوب الغزالى فى

الرد على الفلاسفة وهو يناقش على النهج المنطقى وهو يستعمل اصطلاحات المناطقة فى شتى رسائله وكتبه رغم قوله: «إن جميع عقلاء بنى آدم حرروا علومهم بدون المنطق اليونانى ولأن المنطق فى نفسه بعضه حق و بعضه باطل والحق الذى فيه كثير منه أو أكثره لا يحتاج إليه والقدر الذى يحتاج إليه منه فأكثر الفطر السليمة تستقل به والبليد لا ينتفع به والذكى لا يحتاج إليه ومضرته على من لم يكن خبيرا بعلوم الأنبياء أكثر من نفعه فإن فيه من القواعد السلبية الفاسدة ما راجت على كثير من الفضلاء وكانت سبب نفاقهم وفساد علومهم وقول من قال إنه كله حق كلام باطل ، بل فى كلامهم فى الحد والصفات الذاتية والعرضية وأقسام القياس والبرهان وموارده من الفساد ما قد بيّنّاه».

وهذا الطراز من الحوار الذى استعمله ابن تيمية يدلنا على أن ابن تيمية عرف كثيرا من فلسفة الاغريق ؛ عرف فلسفة أفلاطون والمثل الأفلاطونية وعرف فلسفة أرسطو وآراءه التى خالف فيها أستاذه أفلاطون وتكلم فى الآراء الفلسفية فى الوجود الذهنى والوجود الخارجى ، والكل والكلى بعبارات غاية فى البسط كما تجد ذلك بوضوح فى شتى كتبه التى أراد بها تبيان العقيدة الإسلامية الخالصة والرد على الفلاسفة والحلولين وقد كان عدة كلامه فى الرد على الحلوليين مسألة الوجود الذهنى والوجود الخارجى على النحو الذى سنعرض له إن شاء الله . كذلك لم يتوان ابن تيمية عن استعمال المنطق الارسطاليسى

فى بحث القياس والسبب والعلةوعن قراءة كتب ابن رشد وهو كثيراما يستعمل فى الرد على مدرسة الفارابى وابن سينا حجج ابن رشـد وأدلته فى الحوار رغم أنه يعتقد أن الغزالى كان صاحب الحجة القوية فى جداله لابن رشـد . وما من شك فى أن هـذا برهان واضح على أن ابن تيمية كان شديد الصلة بما كان مؤلفا ومعروفا من الـكتب والرسائل فى عصره بل انه يشير إلى آلاف من الـكتب فى رسائله ومحاوراته لم نعلم عنها إلا النزر اليسير وهو قد حاجّ جميع طوائف الصوفية بلا استثناء . ولقد كان يرى الصوفية الأخيرة صوفية مبتدعة لا يعرفها الإسـلام فى قليل أو كثير مما سنعرض له إن شاء الله عند الـكلام على النزاع بينه و بين الصوفية أما التصوف الأول الذى ارتضاه السلف فذلك جزء من السنة والأثر درسه ابن تيمية كما درس كتب السنة وعرفه فيما عرف من كتب الأثر على النحو الموجود فى كتاب الزهد والورع لأحمـد وكتب الخلّال وآراء الجنيد وما عدا هـذا التصوف فهو زندقة وابتداع لبَّس بهما الشيطان على المتصوفة كما قال ابن الجوزى فى كتابه تلبيس إبليس و يمثل هذا النوع فى نظره ابن عربى وابن سبعين والحلاج وأضرابهم .

و بهذه المناسبة يجدر بنا أن ننبه على شىء واضح الوضوح كله فى آراء ابن تيمية وألوان حواره ذلك أنه لا يذكر رأيا عن شخص إلا بمشافهة أو بنقل عن كتاب عرفه وفى كتابه مجموع الرسائل والمسائل كثير من محـاوراته مع

أصحاب البدع والمذاهب الضالة وكثير من أساليبه التى فيها شىء من الجدة والطرافة فى مناقشة المبتدعين من خصومه على نحو من الالزام لا يعرف إلا لابن تيمية من رجال عصره .

وطبيعى أن يجعل هذا النحو من الاتصال الشخصى أو القراءة الموثوق بها ابن تيمية بمنجاة من الطعن عليه بجهل أو خطأ فى نقل أو ضلال أو تضليل . .

وعرض ابن تيمية فيما عرض فى كتبه ورسائله للخوارج والشيعة أما الخوارج فان ابن تيمية رغم رميه لهم بالمروق من الدين يشع فى ثنايا كلامه تقديرهم والثناء عليهم وإعجابه بحرصهم على مبادئهم وجهادهم فيما اعتقدوه سبيل الله غير مبالين بما يصيبهم من عناء أو نصب أو ذهاب روح أو ضياع مال وهو يراهم المثل الأعلى لنشر المبادئ والقيام عليها واحتفاظهم بالقرآن الكريم وتعاليمه وإن كان ينعى عليهم إفراطهم فى مجافاة السنة وفصلها عن القرآن وعدم استغلالها استغلالا حسنا لو قاموا به لكانوا خير الناس تمثيلا لمبادئ المسلمين وهو يقول فى منهاج السنة النبوية : (فالخوارج مع أنهم مارقون من الدين ليسوا ممن يتعمد الكذب بل هم معروفون بالصدق حتى يقال إن حديثهم أصح الحديث لكنهم جهلوا وضلوا فى بدعتهم ولم تكن بدعتهم عن زندقة وإلحاد بل عن جهل وضلال فى معرفة معانى الكتاب) .

أما الشيعة فهى الطائفة التى شغلت ابن تيمية وقتا غير قليل واستدعت من جهوده الشيء الكثير وكتابه منهاج السنة النبوية كتاب هو نسيج وحده يمثل لنا ابن تيمية وعقله الناضج المكتمل ويمثل لنا ابن تيمية العالم الأصولى الفقيه المحدث المنطقى الخبير بالملل والنحل والعليم بالفلسفة ومناحى الفلاسفة ومعرفته بالتاريخ والسيرة إلى غير ذلك من العلوم الإسلامية المعروفة يومذاك كتبه ليرد به على كتاب منهاج الكرامة فى معرفة الإمامة لابن المطهر الحلى ، وقال عنه ابن تيمية: إنه من أعظم الأسباب فى تقرير مذهبهم عند من مال إليهم من الملوك وغيرهم ، ولعل هذا من أهم العوامل التى دفعت بابن تيمية إلى بذل كل جهوده فى نقض ما حواه الكتاب من آراء لم يقم عليها فى نظره أى دليل ، وإلى جمع شتات العلوم ليستقى منها مايقوى حججه ضد الروافض والشيعة بوجه عام . ولهذا عدة عوامل ؛ أهمها أن ابن تيمية مقتنع أشد الاقتناع بأن غلاة الشيعة والروافض كانوا أداة هدامة لوحدة المسلمين وعاملا على تمزيق شملهم وهو لا يطيق أن يرى ذلك التراث العظيم الذى تركه السلف الصالح بعقائدة الطاهرة ينهار صرحه أمام تلك الموجات الغريبة من تعاليم لاتمت إلى الإسلام بصلة ، ولم يقم عليها نقل من كتاب أو من سنة ولم يدعمها عقل فهو يتهم الروافض بالجهل ومشايعة اليهود والنصارى ويقص فى كتابه ذلك من أوجه المشابهة ويتهمهم بالحمق وضيق العطن ، وضعف البصر بمواقع الصواب .

ويعرض ابن تيمية في مستهل كتابه هذا لمسالك الشيعة وما تدور عليه أبحاثهم فيقول: « فإن الرافضة في الأصل ليسوا أهل علم وخبرة بطريق النظر والمناظرة ومعرفة الأدلة وما يدخل فيها من المنع والمعارضة كما أنهم من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار والتمييز بين ضعيفها وصحيحها وإنما عمدتهم في المنقولات على تواريخ منقطعة الاسناد وكثير منها من وضع المعروفين بالكذب والإلحاد . وقد اتفق أهل العلم بالنقل والرواية والإسناد على أن الرافضة أكذب الطوائف .

ثم يقول : ولا ريب أن الصابئة والمجوس شر من اليهود والنصارى ، ولكن تظاهروا بالتشيع قالوا : لأن الشيعة أسرع الطوائف استجابة لنا لما فيهم من الخروج على الشريعة ولما فيهم من الجهل والتصديق بالمجهولات فهم كما قيل فيهم :—

الدين يشكو بليه ... من فرقة فلسفيه
لا يشهدون صلاة ... إلا لأجل تَقِيَّه
ولا ترى الشرع إلا ... سياسة مدنيه
ويؤثرون عليه ... مناهجاً فلسفيه

وقد عرف ابن تيمية نحل الشيعة وفروعها من القرامطة والاسماعيلية والنصيرية وعرف ما كتبه إخوان الصفا ورسائلهم وما رموا إليه من تلك

الرسائل من الناحية الدينية والسياسية فيقول عنهم فى الفتاوى : هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية وسائر أصناف القرامطة الباطنية ضررهم على أمة محمد أعظم ضرراً من الكفار المحاربين مثل كفار الترك والأفرنج وغيرهم فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت وهم فى الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا باليوم الآخر ولا بكتابه ولا بأمر ولا بنهى ولا بثواب ولا عقاب ولا بجنة ولا نار ولا بأحد من المرسلين مثل محمد صلى الله عليه وسلم ولا بملة من الملل السالفة بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند المسلمين يتأولونه على أمور يغيرونها يدعون أنها من علم الباطن ومقصودهم إنكار الاسلام وشرائع الاسلام بكل طريق ومن المعلوم أن السواحل الشامية إنما استولت عليها النصارى من جهتهم وهم دائما مع كل عدو للمسلمين .

وابن تيمية يعنى أشد العناية بالقرامطة والباطنية لأن مبادئهم كانت سبباً فى تلك الحركات الثورية الهدامة التى ظهرت فى الاسلام على يدهم ، والتى يعزو إليها ابن تيمية تفكك عرى الوحدة الاسلامية وأنهم كانوا عوناً لكل عدو هاجم المسلمين لولا أن أراح الله العالم منهم بتهديم مركز دعوتهم فى حصن أَلَمُوت على يد هولاكو ، وأن الإمامة ومركز الإمام وما يتعلق بهما مما دار عليه جل مباحث الشيعة كان سبباً فى تلك العواصف الهوج التى مرت بالاسلام من الناحية السياسية والناحية الثقافية ، فلم يكن الاسلام ولم

تكن النبوات فى نظرهم إلا سياسة عادلة قصد بها تنظيم مصالح الناس فى هذه الحياة الدنيا .

وما من شك فى أن ابن تيمية عرف حقيقة فكرة المهدى عند الشيعة وأراد أن يستغلها في ميدان مباحث أهل السنة و يبين على ضوئها وظيفة الامام العادل على رأيهم ، ولقد كان لهذه الآراء التى قرأها عن رسائل اخوان الصفا وما كتبه الشيعة أثر فى آراء ابن تيمية عن بعض المسائل الاسلامية كمسألة الاجتهاد وفتح بابه ، ووظيفة الشريعة وشأنها العظيم فى توجيه أمور المسلمين على وجه يحقق المصلحة بغير تقيد بحرفية النصوص ، وفى تلك الآراء العظيمة التى تقرؤها عن ابن تيمية والاسلام من ناحيته الروحية ومن ناحيته الاجتماعية والسياسية ، وأن هذه الآراء الافلاطونية التى تنم عنها رسائل إخوان الصفا قد استطاع ابن تيمية بعقليته السلفية الناضجة أن يتكلم عنها بلغة إسلامية على نهج الاسلام والسنة ، واستطاع أن يرسم فى كتابه السياسة الشرعية القواعد العامة لإصلاح الراعى والرعية على ضوئها شارحاً ذلك بما وسعه بيانه من القرآن ، وأحاديث الرسول ، وآراء السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ، وبما تقتضيه مصلحة المسلمين على ما تمليه روح الشريعة . ولهذا كان ابن تيمية على شيء غير قليل من الحرية فى المسائل التى اصطلح الناس على تسميتها أموراً دنيوية أو معاملات فى

مقابل العبادات كما سنعرض له عند الكلام على نزاعه مع الفقهاء .

وكان من السهل أن يجد فى مذهب أحمد كما أسلفنا المذهب السلفى الذى يستطيع أن يجد فيه ما يرضى رغباته ويشبع ميوله فهو يقول عنه : ومن كان خبيراً بأصول أحمد ونصوصه عرف الراجح فى مذهبه فى عامة المسائل وإن كان له بصر بالأدلة الشرعية عرف الراجح فى الشرع . وأحمد كان أعلم من غيره بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولهذا لا يكاد يوجد له قول يخالف نصاً كما يوجد لغيره ، ولا يوجد له قول ضعيف فى الغالب إلا وفى مذهبه قول يوافق القول الأقوى ، وأكثر مفاريده التى يختلف فيها مذهبه يكون قوله فيها راجحاً كقوله بقبول شهادة أهل الذمة على المسلمين عند الحاجة كالوصية للسفر إلى غير ذلك من المسائل .

وكان مذهب احمد يعتمد على أصول خمسة ؛ أولها : النص فإذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى ماخالفه ولا من خالفه كائنا من كان ، ولهذا لم يلتفت إلى خلاف عمر فى المبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس ، ولا إلى خلافه فى التيمم للجنب لحديث عمار بن ياسر ، فلم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملا ولا رأيا ولا قياساً ولا قول صاحب ولا عدم علمه بالمخالف الذى يسميه كثير من الناس اجماعا ويقدمونه على الحديث الصحيح ، ولقد كذّب احمد من ادعى هذا الاجماع ولم يسغ تقديمه على الحديث الثابت

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل سمعت أبي يقول: مايدعى فيه الرجل الاجماع فهو كذب من ادعى الاجماع فهو كاذب لعل الناس اختلفوا (ما يدريه) ولم ينته اليه .

ثانيها فتوى الصحابة . فإذا وجد لبعضهم فتوى لا يعرف لها مخالف لم يعدها الى غيرها ، وما كان أحمد يقول ان ذلك إجماع بل كان من ورعه فى العبارة يقول لا أعلم شيئا يدفعه أو نحو هذا ، كما قال لا أعلم أحدا رد شهادة العبد لقول أنس بن مالك .

ثالثها اذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهم ما كان أقرب الى الكتاب والسنة ولم يخرج عن أقوالهم فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها ولم يجزم بقول .

رابعها الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف اذا لم يكن فى الباب شىء يدفعه وهو الذى رجحه على القياس ، وليس المراد بالضعيف عنده الباطل ولا المنكر ولا مافى روايته متهم ، بل الحديث الضعيف عنده قسيم الصحيح وقسم من أقسام الحسن ولم يكن يقسم الحديث الى صحيح وحسن وضعيف بل الى صحيح وضعيف وللضعيف عنده مراتب ، فإذا لم يجد فى الباب أثرا يدفعه ولا قول صاحبه ولا إجماع على خلافه كان العمل به عنده أولى من القياس، وليس أحد من الأئمة الا و يوافقه على هذا الأصل من حيث الجملة .

خامسها : اذا لم يكن عنـد الإمام أحمد فى المسألة نص ولا قول صحابى ولا أثر مرسـل أو ضعيف عدل الى الأصـل الخامس وهو القياس فاستعمله للضرورة .

وجـد ابن تيمية فى مذهب أحمـد ما يرضى ميوله كما أسلفنا فقرأ كتب الحنابلة وهو مع ذلك لم يمتنع عن قراءة كتب المذاهب الأخرى. فكان لابن تيمية اختيارات فى مذهب أحمد كما كان له اختيارات خالف بها مذهب أحمد. وكان له اختيارات خالف بها مشهور المذاهب الأربعة سنعرض لها فيما بعد . ولـكن جل آرائه واختياراته لا تخرج عن النقل الصحيح وما يمكن أن يعتمد عليـه حقا من آراء السلف الصالح على الطريق الذى سلـكه شيخ المذاهب أحمد بن حنبل وسلـكها من بعده تلميذه ابن القيم .

والذى يقضى منه العجب فى ناحية ابن تيمية الفقهية تلك الإحاطة التامة بآراء فقهاء الأمصار الإسلاميـة ؛ حتى تسنى له أن يقارن هذه الآراء ويميزها على وجه يسـتدعى أنظار المعنيين بدراسة الفقه الإسلامى ، وتتبع تطوراته ، معتمدا فى ذلك على ما صح نقله عن الرسول قولا أو فعلا كعمل أهل المدينـة ولعل هذا هو السر فى إعجاب ابن تيمية بمالك ومتقدمى المالكية ، كما أعجب من قبله بإمامه أحمد ، إذ كان يسوغ استفتاء فقهاء الحديث وأصحاب مالك ويدل عليهم ، ويمنع استفتاء من يعرض عن الحديث ولا يبنى مذهبه عليه ،

ولا يسوغ العمل بفتواه ، وقد درس ابن تيمية الموطأ والمدونة واستطاع أن ينتفع بهذه الثروة العظيمة من فقه مالك قبل أن يعرض له المتأخرون بالكتابة التى لم تكن ترضى ابن تيمية كثيرا ، ونعى عليهم أنهم لم يحافظوا على آراء إمامهم ، ولم يفت ابن تيمية أن يقرأ كتب الشافعى ، وأن ينتفع بما كتبه الشافعية فى شتى النواحى، وإنك لتجد فى رسالة السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية أنها أشبه بالتعقيب على ما ذكره الماوردى الشافعى فى كتاب الأحكام السلطانية ، وتتمثل فى هذه الرسالة عقلية ابن تيمية من الاعتراف بسياسية الأمر الواقع ما دام يمكن تطبيقه على نحو شرعى

ولم تعمل فى تكوين آرائه العوامل التى لعبت دورا فى تكوين آراء غيره من دواعى التعصب ، والانتصار للمذهب وإن لاح الدليل فى غيره ، فالواجب فى نظره على كل أحد أن يعتمد حكم الله ورسوله فإن الله فرض طاعة رسوله ﷺ على كل أحد فى كل حال وهو يرى ما يرى أحمد شيخ مذهبه أنه لا يجوز للعالم القادر على الاستدلال أن يقلد مالكا أو الشافعى . وشعار ابن تيمية دائما ما ذكره هو فى وصيته : الوصية الصغرى بقوله (وأما ما تعتمد عليه من الكتب والعلوم فهذا باب واسع ، وهو أيضا يختلف باختلاف نشأة الإنسان فى البلاد فقد يتيسر له فى بعض البلاد من العلم ، أو من طريقه ومذهبه فيه مالا يتيسر له فى بلد آخر لكن جماع الخير أن يستعين

بالله سبحانه فى تلقى العلم الموروث عن النبى ﷺ فإنه هو الذى يستحق أن يسمى علما ! وما سواه إما أن يكون علما فلا يكون نافعا ، و إما أن لا يكون علما ، وإن سمى به ولئن كان علما نافعا فلا بد أن يكون فى ميراث محمد ﷺ ما يغنى عنه مما هو مثله وخير منه . ولتكن همته فهم مقاصد الرسول فى أمره ونهيه وسائر كلامه، فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه و بين الله تعالى ، ولا مع الناس اذا أمكنه ذلك . وليجتهد أن يعتصم فى كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبى ﷺ ، واذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدع بما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام يصلى من الليل : « اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، أنت تهدى من تشاء الى صراط مستقيم » فإن الله تعالى قد قال فيما رواه عنه رسوله : « يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم » و يقول فى إحدى رسائله : « ومن تعصب لواحد من الأئمة بعينه فقد أشبه أهل الأهواء سواء تعصب لمالك أو لأبى حنيفة أو أحمد أو غيرهم ، ثم غاية المتعصب لواحد منهم أن يكون جاهلا بقدره فى العلم والدين ، و بقدر الآخرين فيكون جاهلا ظالما والله يأمر بالعلم والعدل ، وينهى عن الجهل

والظلم . قال تعالى : (وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا) ، وهـذا أبو يوسف ومحمد أتبع الناس لأبى حنيفة وأعلمهم بقوله وهما خالفاه فى مسائل لا تـكاد تحصى لما تبين لهما من السنة والحجة ما وجب عليهما اتباعه وهما مع ذلك يعظمان إمامهما ولا يقال فيهما مذبذبان بل أبو حنيفة وغيره من الأئمة يقول القول ثم تتبين له الحجة فى خلافه فيقول بها ولا يقال له مذبذب، فإن الإنسان لايزال يطلب العلم والإيمان فإذا تبين له من العلم ما كان خافيا عليه اتبعه وليس هذا بمذبذب بل هـذا مهتد زاده الله هدى والواجب على كل مؤمن موالاة المؤمنين وأن يقصد الحق ويتبعه حيث وجده وليس لأحد أن يتخذ قول بعض العلماء شعارا يوجب اتباعه ، وينهى عن غيره مما جاءت به السنة. وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم فى المذاهب وغيرها حتى تجد المنتسب للشافعى يتعصب لمذهبه على مذهب أبى حنيفة حتى يخرج عن الدين والمنتسب إلى أبى حنيفـة يتعصب لمذهبه على مذهب الشافعى وغيره حتى يخرج من الدين والمنتسب إلى أحمد يتعصب لمذهبه على مذهب هـذا أو هذا وفى المغرب تجد المنتسب إلى مالك يتعصب لمذهبه على هذا وهذا وكل هـذا من التفرق والاختلاف الذى نهى الله ورسوله عنه وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل المتبعين الظن وما تهوى الأنفس المتَّبِعين

لأهوائهم بغير هدى من الله مستحقون العقاب . ولم يكتف ابن تيمية بالنعى على هذا التعصب المذهبى والزراية به ، بل شدد النكير على ذلك النوع من الجدال الذى سلكه الفقهاء فى تأييد آرائهم والذى ابتدعوه ليرسموا به الطريق لمحاوراتهم والظفر بخصومهم ، وكتب فى ذلك كتابه تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل قال فى مقدمته ما ملخصه « وأن الله سبحانه علم ما عليه بنو آدم من كثرة الاختلاف والافتراق ، وتباين العقول والأخلاق، حيث خلقوا من طبائع ذات تنافر وابتلوا بتشعب الأفكار والخواطر فبعث الله الرسل ليبينوا للناس ما يخشى عليهم منه الضلال، وحضهم عند التنازع على الاحتكام الى الله ورسوله ، وعذرهم فيما يتنازعون فيه من دقائق الفروع العملية لخفاء مداركها ، وخفة مسلكها ، وحضهم على المناظرة لاستخراج الصواب فى الدنيا والآخرة حيث يقول لمن رضى دينهم : وأمرهم شورى بينهم ، وكان السلف يتناظرون فى الأحكام ومسائل الحلال والحرام بالأدلة المرضية والحجج القوية ويجادلون أهل الأهواء المضلة حتى يردوهم الى سواء الملة . وهذا وأمثاله يجل عن الحد والاحصاء ثم صار المتأخرون بعد ذلك قد يتناظرون فى أنواع التأويل والقياس بما يؤثر فى ظن بعض الناس وان كان عند التحقيق يؤول الى الافلاس لكنهم لم يكونوا يقبلون من المناظرة إلا

ما يفيد ولو ظنا ضعيفا للناظر ، واصطلحوا على شريعة من الجدل للتعاون على إظهار صواب القول والعمل ، ضبطوا بها قوانين الاستدلال لتسلم عن الانتشار والانحلال فطرائقهم وان كانت بالنسبة إلى طرائق الأولين غير وافية بمقصود الدين لكنها غير خارجة عنها بالكلية ، ولا مشتملة على مالا يؤثر فى القضية ، وربما كسوها من جودة العبارة وتقريب الإشارة وحسن الصياغة ما يحليها عند الناظرين مع اشتمالها على الأدلة السمعية والمعانى الشرعية ، وبنائها على الأصول الفقهية والقواعد الشرعية والتحاكم فيها إلى حاكم الشرع الذى لا يعزل وشاهد العقل المُزَكَّى المعدل .

ثم إن بعض طلبة العلوم من أبناء فارس والروم صاروا مولعين بنوع من جدل المموهين استحدثه طائفة من المشرقيين وألحقوه بأصول الفقه فى الدين ، راوغوا فيه مراوغة الثعالب ، وحادوا فيه عن المسلك اللاحب ، وزخرفوه بعبارات موجودة فى كلام العلماء قد نطقوا بها ، غير أنهم وضعوها فى غير مواضعها المستحقة لها وألَّفوا الأدلة تأليفا غيرمستقيم وعدلوا عن التركيب الناتج إلى العقيم غير أنهم بإطالة العبارة ، وإبعاد الإشارة، واستعمال الألفاظ المشتركة والمجازية فى المقدمات ، ووضع الظنيات موضع القطعيات ، والاستدلال بالأدلة العامة حيث ليست لها دلالة على وجه يستلزم الجمع بين النقيضين مع الاحالة والإطالة نفق ذلك على الجهال واغتر به بعض الأغمار الأعاجم ، حتى ظنوا

أنه من العلم بمنزلة الملزوم من اللازم ولم يعلموا أنه والعلم المقرب من الله متعاندان متنافيان ، كما أنه والجهل المركب متصاحبان متآخيان ، فلما استبان لبعضهم أنه كلام ليس له حاصل لا يقوم بإحقاق حق ولا إبطال باطل أخذ يطلب كشف مشكله وفتح مقفله ثم إبانة علله و إيضاح زَلَلِه، وتحقيق خطئه وخطله، حتى تبين أن سالكه يسلك فى الجدل مسلك اللَّدَد و ينأى عن مسلك الهدى والرشد ، و يتعلق من الأصول بأذيال لا توصل الى حقيقة و يأخذ من الجدل الصحيح رسوما يموّه بها على أهل الطريقة ومع ذلك فلا بد أن يدخل فى كلامهم قواعد صحيحة ونكت من أصول الفقه مليحة لكنهم انما أخذوا ألفاظها ومبانيها ، دون حقائقها ومعانيها بمنزلة ما فى الدرهم الزائف من العين ولولا ذلك ما نفق على من له عين »

عبارة لابن تيمية يشفع فى نقلها على طولها رغبتنا فى أن نضع أمام القارئ صورة من عقل ابن تيمية واتجاهه فى فهم مسائل الشرع من حرام ومن حلال فهو لا يروقه تلك التمويهات الجدلية ، والبراهين الخطابية التى استحدثها العلماء فى العصور المظلمة ، فلبست هذه الطرائق على الناس فى فهم مرامى كتاب الله ، وسنة رسوله على الوجه الذى ترتضيه طبيعة الكلام السمح السهل من غير التواء أو تعقيد وأصبح كل عالم أو فقيه يجذب آى الله وأحاديث

رسول الله يمطُّها آنا و يقصرها آخر لتلائم مذهبه وتسير مع ما ارتآه من قواعد حتى استحقوا كلمة المعَرى المشهورة

وكم من فقيه خابط في ضلالة   وحجته فيها الكتاب المنزل

وابن تيمية بعقليته السلفية لا يستسيغ أن يفهم الناس كلام الله وسنة رسوله إلا على الطريق السوى والمنهج الذى لاعوّج فيه ولا أَمْت

تلك جملة من القول تهدّيك إلى تفصيل شيء من تكوين ابن تيمية العلمى، ولون من ألوان الثقافة التي شب فيها ودرج ، والتي كانت عاملا مهما في توجيهه هذه الوجهة الاصلاحية التي قدمت ابن تيمية للاسلام وللمسلمين مثلا أعلى في قوة العقيدة، ونضوج الفكرة واتساع الأفق ، فليس ثمت علم من علوم المسلمين التي كانت معروفة يومذاك لم يكن ابن تيمية ليشارك فيه ، أو يكتب فيه ، ولم يتوان عن الصدع برأيه مهما أدى ذلك إلى اصطدام مع فرد أو مقاومة لجماعة؛ فقد كان ابن تيمية أمَّة بنفسه يرى أنه متى اتبع سنة رسول الله ووافق جماعة المسلمين فهو مع الحق ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز .

ولولا أن ابن تيمية كان آية عصره في العلم ، ووفرة المحفوظ والرواية ، وحدة الذهن ما استطاع أن يصاول هذه الفرق التي صاولها ، ولا أن يطاول هذه الطوائف التي طاولها، مستعملا في ذلك شتى الأسلحة الشريفة التي هداه اليها تفكيره ، وهو يرى أنه مجاهد بالحق و إن مات مات شهيد الحق ، و إنه

وان كان غريباً فى أمة ـ تداركها الله ـ فستعرف الأجيال من بعـده وجه الحق وسينصفه خصومه قبل أصدقائه ان أدركتهم نفحة من نفحات الحق ، وسيذكره التاريخ أن نسيه المعـاصرون ، بل سيسير على نهجه كل المصلحين وهو يرى أن السجن والعذاب والنفى والتشريد كل ذلك عذب فى سبيل الله وللحق شهداء ضربوا للناس فى شتى العصور الأمثال على التضحية والحفاظ على المبدأ وأصبحوا منارة لـكل سالك

والآن وقد عرضنا لتكوين ابن تيمية ، وعرفنا منحاه العلمى واتجاهه الثقافى ، وعرفنا تلك العوامل التى ساهمت فى تكوين تلك العقلية الجبارة نريد أن نعرض لأهم الطوائف التى جادلها وحاجها ولأهم المسائل التى كانت مثار خلاف بينه و بينها من مستهل حياته العلمية إلى أن أخرج لنا هذه الثروة ، وترك لنا هـذا الميراث الضخم ، غير متقيدين بالترتيب الزمنى لهذه الحوادث وهذه المجادلات بل كل وكدنا تقسيم الموضوعات فى ذاتها و بيان مسلك ابن تيمية ومسلك خصومه نحوها وان كنا قد نشير عرضاً إلى السنوات التى وقعت فيها بعض هذه الحوادث لمناسبات قد تقتضيها ظروف القول ، خصـوصاً تلك الحوادث التى أدت الى نفيه وسجنه مرة فى الشام ، وأخرى فى مصر ، وثالثة فى الاسـكندرية مسترشدين فى ذلك بما سجله ابن تيمية فى كتبه ورسائله وما كتبه خصومه وما سطره المترجمون له و يمكن على وجه الاجمال أن نقسم أدوار ذلك الصراع إلى ثلاثة : الدور الأول فى دمشـق من سنة ٦٩٨هـ إلى سنة ٧٠٥هـ و يمتاز

الدور الأول ببعض حوادث ابن تيمية البارزة كمواقفه فى جهاده ضد التتار وجداله مع النصيرية ، والباطنية ، والروافض ، وفيه امتحن ابن تيمية بسبب « عقيدته الحموية الكبرى » .

الدور الثانى : فى مصر من سنة ٧٠٥ هـ إلى سنة ٧١٢هـ وقد قضى ابن تيمية أغلب أعوام هذا الدور سجيناً فى مصر أو الاسكندرية .

الدور الثالث: فى دمشق عند رجوعه من مصر عام ٧١٢هـ إلى أن توفى فى قلعتها

وثمت ظاهرة جديرة بالملاحظة فى حياة ابن تيمية تلك أن الدور الأول من أدوار نضال ابن تيمية لم يبدأ إلا فى عام ٦٩٨هـ أى بعد ما قارب ابن تيمية الثلاثين فلم يسمع لابن تيمية طوال هذه المدة صوت على النحو الذى سمع منه فيما بعد خصوصاً بعد ما تصدر للأفتاء وهو فى العشرين من عمره ؟ .

قد يكون السبب فى ذلك أن ابن تيمية ـ وهو بتلك العقلية الجبارة التى وصفناها ـ لم يكن يرى من نفسه الكفاية لابداء آرائه الخاصة فى العقائد التى كانت سائدة فى العالم الاسلامى يومذاك ، وقد يكون السر أن الحوادث السياسية فى تلك الحقبة من تاريخ مصر والشام لم تكن لتهيئ الناس لسماع المناقشات والمحاورات فى أمثال هذه المسائل ، خصوصاً وأن الأمراء كانوا يحرصون على تهدئة الجو الداخلى أثناء الصراع مع أعدائهم من الخارج حتى إذا ما هدأت العاصفة تولوا هم بأنفسهم أمر هذه المجادلات وأشرفوا عليها (كما سنعلم ان شاء الله فيما بعد) فكان من الممكن أن يشغل الناس بها

وليس ثمت ما يهمهم من خطــر .

والمتتبع لتاريخ الظروف التى مرت بها محن ابن تيمية فى العقائد يجد أغلبها فى السنوات التى لم يكن للماليك شغل بعدو من التتار أو من أوربا وابن تيمية نفسه مع تخيره للجو الذى يجادل فيــه كان يرى أن يشغل نفسه بالجهاد فى سـبيل الله ضد المغول أعداء الدولة ، أو النصيرية أعداء الدين ، وان ذلك خيرٌ مقاما من تلك الأمور التى عنّى الناس أنفسهم فى مناقشات بيزنطية حولهـا دون طائل .

ولم يكن ابن تيمية يرى أن من الخير أن يتـكلم العالم دون أن يعمل ، ودون أن يساهم بروحه فى سـبيل الله وقد شهد بنفســه معركة شقحب ضد المغول ومعركة جبل كسروان ضد النصــيرية وكان له فيهما وفى غيرهما بلاء حسن سطرته أقلام المترجمين له وسنعرض له اجمالا عند الــكلام على صفات ابن تيمية حتى اذا ما سكنت العاصفة رجع ابن تيمية إلى قلمه يسـتوحيه الدفاع فى سـبيل الله والجهاد فى بيان المبادئ التى كان يعتقد أنها الحق وانها العقائد التى مضى عليها السلف الصالح محتسباً فى ذلك مدخراً جزاءه عند الله ، لا مرتزقا من وظيفة ، ولا مستحقاً فى غـلة ، ولا كلا على صديق ، أو عالة على أمير ، يعرفه عن طمع أو يهجره إلى طمع ، فهو يكتب لله ، وهو يدافع عما اعتقده هدى الله وسـنة رسول الله ، فـكان جزاؤه جزاء الصابرين ، وانما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب .

ابن تيمية وعلماء الكلام

أشرنا فيما مضى إلى النزاع الذى ثار بين ابن تيمية والعلماء المعاصرين له من شتى الطوائف ، و بينا أن التيارات الفكرية والعقائد التى كانت سائدة فى العالم الاسلامى كانت تدعو ابن تيمية (وهو السلفى الخالص) إلى أن يكتب ليبين العقيدة التى كان عليها السلف من لدن رسول الله ﷺ و بينّا أن هذه العقائد التى اشتهرت بينهم على أنها مذهب للأشاعرة أو الماتريدية أو المعتزلة أو غيرهم من المذاهب الكلامية لا تمثل العقائد الاسلامية الأولى تمثيلاً صحيحاً فى نظره رغم ما أسبغ عليها قدم العهد من قدسية ، ورغم تلقى الناس لها بالقبول ، ورغم أن الأيوبيين — كما أسلفنا فى العبارة التى نقلناها عن المقريزى — قد فرضوا على الناس فى مصر عقيدة الأشاعرة .

وابن تيمية كما أشرنا آنفاً كان حنبلياً تأثر بعقيدة الحنابلة كما بينها امامهم الجليل احمد بن حنبل لاعتقاده أنها العقيدة التى تقوم على دعامة المأثور من كتاب الله وسنة رسوله ، لم تنزع إلى مرمى فلسفى ، ولم يشبهها شىء مبتدع يخرجها عما فهمها عليه السلف الأولون فكان من الطبيعى أن يكتب ليدافع عنها .

والحنابلة فى مجموعهم لم يقولوا بهـذه العقائد التى دسها عليهم خصومهم فى مسائل التوحيد كمسألة كلام الله ، أو التشبيه كمسألة الاستواء على العرش والنزول ، وانه ان يكن قد شذ منهم قائل بما يعاب عليه من ناحيـة العقيدة فذلك طبيعى فى كل جماعة وفرقة ، يكون فيهم المغالى والمعتدل ، وقد تدعوه إلى ذلك طبيعـة الجدل فيفهم منه خصمه شيئاً يحمله على وجـه لم يكن هو — لو عرض عليه — ليرضى به .

والاشعرى فى كتابه مقالات الاسلاميين ذكر العقيدة الاسلامية على وجه لا يخالف به الامام احمد ، ولا منصفى الحنابلة ، وقد قال الالوسى : ان مذهب الامام الأشعرى عنـد كثير من المحققين والعلماء المنصفين هو مذهب الامام احمد لـكن كثرت المقالة بين متأخرى الاشاعرة والحنابلة حتى أدي ذلك إلى تضليل كل من الفريقين صاحبـه وذلك فى مسائل تمسكت فيها الحنابلة بظواهر الـكتاب والسنة كالاستواء والنزول والوجه وغير ذلك من أحاديث الصفات ، وأولها كثير من الأشاعرة قاصدين فيـه كمال التنزيه لله تعالى عن لوازم الأجسـام فبالغ كذلك جمع من الحنابلة فى ردهم وتخطئتهم فالحنابلة مبرءون مما نسب اليهم ومذهبهم الأسلم الأحكم وكـذا الاشعرية مبرءون مما نسب اليهم من التعطيل والتحريف والـكل على هـدى يدينون دين الحق والمخالفون شرذمة قليلة من الطرفين ، وقال ابن السبكى فى كتابه

« معيد النعم ومبيد النقم » ان الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة فى العقائد يد واحدة كلهم على رأى أهل السنة والجماعة إلا رعاعاً من الحنفية والشافعية لحقوا بأهل الاعتزال ، ورعاعاً من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم ، وبرأ الله تعالى المالكية منهم فلم ير مالكى إلا أشعرى العقيدة اه .

وابن تيمية الذى نقل عنه ما نقل يقول فى عقيدته الحموية عن احمد (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لايتجاوز القرآن والحديث ، ونعلم أن ماوصف به الله من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجى بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه ، وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء فى نفسه المقدسة المذكورة باسمائه وصفاته ولا فى أفعاله فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة وله أفعال حقيقة فكذلك له صفات حقيقة وهو ليس كمثله شيء لافى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثا فان الله منزه عنه حقيقة وأنه سبحانه مستحق للكمال الذى لاغاية فوقه) .

تلك هى عقيدة الامام احمد التى ورثها عنه علماء الحنابلة فى مجموعهم ولم يكن منهم ذلك الشذوذ ولا هذه المغالاة فى العقائد التى أدت بهم كما يقول خصومهم عنه إلى القول بالتجسيم أو اثبات صفات لله عز وجل يشبه بها المخلوقين .

وقد قال الذهبي فى رسالة بيان زغل العلم والطلب : (وأما الحنابلة فعندهم علوم نافعة وفيهم دين فى الجملة ولهم قلة حظ فى الدنيا والناس يتكلمون فى عقيدتهم و يرمونهم بالتجسيم و بأنه يلزمهم وهم بريئون من ذلك إلا النادر والله يغفر لهم) .

و يقول ابن الجوزى الحنبلي فى رسالة دفع شبهة التشبيه والرد على المجسمة ما نصه :

ورأيت من أصحابنا من تكلموا فى الأصول بما لا يصلح وانتدب للتصنيف ثلاثة أبوعبدالله ابن حامد وصاحبه القاضى أبو يعلى ، وابن الزاغونى ، فصنفوا كتباً شانوا بها المذهب ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحس فسمعوا أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم على صورته فأثبتوا له صورة ، وقد تبعهم خلق من العوام وقد نصحت التابع والمتبوع فقلت لهم يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل و إتباع ، وأمامكم الاكبر احمد يقول وهو تحت السياط « كيف أقول مالم يقل » اياكم أن تبتدعوا فى مذهبه ماليس منه فلقد كسيتم هذا المذهب شيئا قبيحا حتى صار لا يقال عن حنبلي إلا مجسم .

وقد كان ابومحمد التميمى يقول فى بعض أئمتكم (يشير للقاضى أبى يعلى) لقد شان المذهب شينا قبيحا لا يغسل إلى يوم القيامة .

فالذى نقل عن الحنابلة عن طريق خصومهم لا يقبل وما الحنابلة إلا كغيرهم من بقية الفرق الكلامية ، وسنعود لهذا الموضوع مرة أخرى عند عرض الآراء التى نازع فيها ابن تيميـة أهل المذاهب الأخرى . وانما عجلنا بذكر هذه الكلمة لنبين من بدء الحديث مركز الحنابلة من هذه التهم التى عزيت اليهم ، ولنبين أن ابن تيمية لم يكن بدعا من بين الحنابلة فى قوله بهذه الآراء التى سنعرف فيا بعد أنها فى مجموعها لا تشذ عن آراء السلف من اشاعرة وغيرهم ، وانها عقائد لم تبعد عن السنة ، ولا عن سبيل المسلمين القويم كما يرميهم خصومهم بذلك . بل كانت كل أقوالهم تهدف الى تنزيه الله عز وجل عن كل شائبة من شوائب النقص والى إعمال النصوص التى جاءت من كتاب الله عز وجل ومن سنة رسوله المطهرة .

آيات الصفات وأحاديثها :

ويتلخص موضوع النزاع بين ابن تيمية وخصومه فى مسائل العقائد فيما يأتى : —

جاء فى القرآن الكريم آيات وفى السنة المطهرة أحاديث تفيد بظاهرها معانى لا يليق اسنادها إلى الله عز وجل .

ففى القرآن قوله عز وجل : (وَيبْقى وجْهُ ربك) ، (كل شىء هالكٌ إلا وجهه) (ولتُصْنع على عينى) ، (لما خلقتُ بيدى) ، (والسماءَ بنيناها بأيد) ،

(ويحذّركم الله نفسه) ، (يوم يُكشف عن ساق) ، (ثم استوى على العرش)
وفى الأحاديث (خلق الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام على صورته)
وفى حديث البخارى ومسلم (يجمع الله الناس فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه فيتبعون ما كانوا يعبدون وتبقى هـذه الأمة بمنافقيها فيأتيهم الله تعالى فى غير الصورة التى يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله تعالى منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم فى الصورة التى يعرفونها فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا) وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه قال (فيأتيهـم الجبار فى صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فـلا يكلمه إلا الأنبياء عليهم الصـلاة والسلام فيقال هل بينكم و بينه آية تعرفونها ؟ فيقولون الساق فيكشف عن ساقه فيسجد كل مؤمن)

وفى الصحيحين (لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هـل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمـه فينزوى بعضها الى بعض) الى غير ذلك من آيات وأحاديث اصطلح جمهرة العلمـاء على تسميتها المتشابهات وكانت لذلك مثار النزاع بين العلماء ، وكانت الميدان الذى صال فيـه كل منتسب الى فرقة من الفرق الإسلامية وكل يُعمل فـكره فى أحسن الطرق وأقومها فى تأييـد رأيه مستشهدا بكلام العرب والقرآن والحديث

ومن العجب أنك تجد الآية الواحدة يصرفها الخصمان الى ما يوافق وجهة نظر كل منها حتى أدى ذلك فى كثير من الأحايين الى الاعتساف والى إخراج كتاب الله الكريم ، وحديث رسوله العظيم عن الجادة وعما ألف العرب من أساليب وما استقام فى عرف التخاطب. وهناك فى القرآن الكريم آية لم يتفق الناس على فهم المقصود منها بسبب اختلافهم على الوقف فيها تلك هى قوله تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هن أم الكتاب وأخر متشابهاتٌ فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب)

قال الألوسى فى روح المعانى ما ملخصه : « إن من فسر المتشابه بما لم يتضح معناه وقف على الراسخون فى العلم وأما من فسر المتشابه بما استأثر الله تعالى بعلمه وقف على لفظ الجلالة . وذهب بعض العلماء الى أن كلا من الوقف والوصل جائز ولكل منهما وجه

قال الراغب : إن القرآن عند اعتبار بعضه ببعض ثلاثة أضرب ؛ محكم على الإطلاق ومتشابه على الإطلاق ، ومحكم من وجه متشابه من وجه ، فالمتشابه فى الجملة ثلاثة أضرب متشابه من جهة اللفظ فقط ، ومن جهة المعنى فقط ومن جهتهما معا ، فالأول ضربان : أحدهما يرجع الى الألفاظ المفردة إما

من جهة الغرابة نحو « الأبّ أو الاشتراك كاليد والعين » وثانيهما يرجع إلى جملة الكلام المركب وذلك ثلاثة أضرب ضرب لاختصار الكلام نحو (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم) وضرب لبسطه نحو (ليس كمثله شىء) لأنه لو قيل ليس مثله شىء كان أظهر للسامع ، وضرب لنظم الكلام نحو (أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجا قيما) ، إذ تقديره أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا والمتشابه من جهة المعنى أوصاف الله تعالى ، وأوصاف يوم القيامة فإن تلك الصفات لا تتصور لنا إذ لا يحصل فى نفوسنا صورة مالم نحسه ، أو ليس من جنسه . والمتشابه من جهتهما خمسة أضرب الأول من جهة الكمية كالعموم والخصوص نحو (اقتلوا المشركين) . والثانى من جهة الكيفية كالوجوب والندب فى نحو (فانكحوا ماطاب لكم من النساء) . والثالث من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو (اتقوا الله حق تقاته) . والرابع من جهة المكان والأمور التى نزلت فيها الآية نحو (وليس البرُّ بأن تَأْتُوا البيوتَ من ظُهورها) و (إنما النسىء زيادة فى الكفر) فإن من لا يعرف عادتهم فى الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه . والخامس من جهة الشروط التى يصح بها الفعل ويفسد كشرط الصلاة والنكاح ثم قال وهذه الجملة إذا تصورت علم أن كل ما ذكره المفسرون فى تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم . ثم جميع المتشابه على ثلاثة أضرب :

ضرب لا سبيل للوقوف عليه كوقت الساعة وخروج الدابة وغير ذلك وقسم للإنسان سبيل إلى معرفتـه ، كالألفاظ الغريبة ، والأحكام الغير واضحة ، وضرب متردد بين الأمرين يختص بمعرفته بعض الراسخين فى العلم ويخفى على من دونهم وهو المشار اليـه لقوله ﷺ لابن عباس « اللهم فقهـه فى الدين وعلمه التأويل » وقال بعض أئمة التحقيق الحق أنه إن أريد بالمتشابه مالا سبيل اليه للمخلوق فالحق الوقف على إلا الله ، وإن أريد مالا يتضح فالحق العطف ويجوز الوقف أيضا لأنه لا يعلم جميعـه أو لا يعلمه بالـكُنْهِ إلا الله تعالى وأما إذا فسر بمـا دل القاطع أى النص النقلى أو الدليـل الجازم العقلى على أن ظاهره غير مراد ، ولم يقل دليـل على ماهو المراد ففيه مذهبان فمنهم من يجوز الخوض فيـه وتأويله بمـا يرجع إلى الجادة فى مثله فيجوز عنـده الوقف وعدمه ومنهم من يمنع الخوض فيه فيمتنع تأويله ، ثم قال الألوسى بعد ذلك إن كثيرا من الناس جعل الصفات النقلية من الاستواء واليد والقدم والنزول إلى السماء الدنيا والضحك والتعجب، وأمثالها من المتشابه، ومذهب السلف والاشعرى من أعيانهـم أنها صفات ثابتة وراء العقل ، ما كلفنا إلا اعتقاد ثبوتها مع اعتقاد عـدم التجسيم والتشبيه لئـلا يضاد النقل العقل ، وذهب الخلف إلى تأويلها وتعيـين مراد الله تعالى منها فيقولون الاستواء مثلا بمعنى الأستيلاء والغلبة وذكر الشعرانى فى الدرر المنثورة أن مذهب السلف

أسلم وأحكم إذ المؤول انتقل من شرح الاستواء الجسمانى على العرش المكانى بالتنزيه عنه إلى التشبيه السلطانى الحادث وهو الاستيلاء على المكان فهو انتقال عن التشبيه بمُحْدث ما إلى التشبيه بمحدث آخر فما بلغ عقله فى التنزيه مبلغ الشرع فيه فى قوله تعالى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىء ، ألا ترى أنه استشهد فى التنزيه العقلى فى الاستواء بقول شاعر :

قد استوى بشر على العراق   من غير حرب ودم مهراق

وأين استواء بشر على العراق من استواء الرحمن على العرش ؟ ونهاية الأمر يحتاج إلى القول بأن المراد استيلاء يليق بشأن الرحمن جل شأنه فليقل من أول الأمر قبل تحمل مئونة هذا التأويل استواء يليق بشأن من عز شأنه وتعالى عن إدراك العقول سلطانه وهذا أليق بالأدب وأوفق بكمال العبودية وهو رأى صدور الأمة وساداتها وأئمة الفقهاء وقادتها وإليه دعا أئمة الحديث فى القديم والحديث حتى قال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه ولا يقال إن تركنا أمثال هذه المتشابهات على ظواهرها دلت على التجسيم وإن لم ترد ظواهرها فقد أولت لأن التأويل إخراج الكلام عن ظاهره لأنا نقول ليس التأويل إخراج الكلام عن ظاهره مطلقا بل إخراجه إلى معنى معين معلوم كما يقال

الاستواء مثلا بمعنى الاستيلاء على أن للتأويل معنيين مشهورين لا
شيء منهما على نفى الظاهر من غير تعيين المراد: أحدهما ترجمة الشيء و
الموضح له، وثانيهما بيان حقيقته وإبرازها إما بالعلم أو بالعقل فإن من ق
التنزيه لا أدرى من هذه المتشابهات سوى أن الله تعالى وصف بها
وأراد منها معنى لائقا بجلاله جل جلاله ولا أعرف ذلك المعنى لم يقل
إنه ترجم وأوضح ولا بين الحقيقة وأبرز المراد حتى يقال إنه أول. قال ا
فى رسالته «الإكليل فى المتشابه والتأويل» مانصه: «ومثار الفتنة بين ال
ومحار عقولهم أن مدعى التأويل أخطأوا فى زعمهم أن العلماء يعلمون ا
وفى دعواهم أن التأويل هو تأويلهم الذى هو تحريف الكلم عن مواض
الأولين لعلمهم بالقرآن والسنن وصحة عقولهم وعلمهم بكلام السلف وكلام
علموا يقينا أن التأويل الذى يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن فإنهم
الكلم عن مواضعه وصاروا مراتب ما بين قرامطة وباطنية يتأولون ا
والأوامر ومابين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليو
حتى عن أكثر أحوال الأنبياء وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض
فى اليوم الآخر وفى آيات القدر ويتأولون آيات الصفات وقد وافقهم
متأخرى الأشعرية على ما جاء فى بعض الصفات وبعضهم فى بعض ما
اليوم الآخر وآخرون من أصناف الأمة وإن كان تغلب عليهم السنة

أيضا مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه والذين
العلم بالتأويل مثل طائفة من السلف وأهل السنة وأكثر أهل الكلام
رأوا أيضا أن النصوص دلت على معرفة معانى القرآن ورأوا عجزا
وقبيحاً أن يخاطب الله عباده بكلام يقرءونه ويتلونه وهم لا يفهمونه
مصيبون فيما استدلوا به من سمع وعقل لكن أخطأوا فى معنى التأويل
نفاه الله وفى التأويل الذى أثبتوه وتسلق بذلك مبتدعتهم إلى تحريف
عن مواضعه وصار الأولون أقرب إلى السكوت والسلامة بنوع من
وصار الآخرون أكثر كلاما وجدالا ولكن بفرية على الله وقول عليه
يعلمونه وإلحاد فى أسمائه وآياته فهذا هذا ومنشأ الشبهة الاشتراك فى لفظ
ل .

بيان التأويل فى عرف المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمحدثة والمتصوفة
هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به
هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف فإذا
أحد منهم هذا الحديث أو هذا النص مؤول أو هو محمول على كذا
الآخر هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل والمتأول عليه وظيفتان :
احتمال اللفظ للمعنى الذى ادعاه ، و بيان الدليل الموجب للصرف إليه عن
الظاهر . وهذا هو التأويل الذى يتنازعون فيه فى مسائل الصفات إذا

صنف بعضهم فى إبطال التأويل أو ذم التأويل أو قال بعضهم آيات الصفات لا تؤول وقال الآخر بل يجب تأويلها وقال الثالث بل التأويل جائز يفعل عند المصلحة و يترك عند المصلحة أو يصلح للعلماء دون غيرهم إلى غير ذلك من المقالات والتنازع .

وأما التأويل فى لفظ السلف فله معنيان : أحدهما تفسير الكلام و بيان معناه سواء أوافق ظاهره أم خالفه فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقاربا أو مترادفا وهذا والله أعلم هو الذى عناه مجاهدأن العلماء يعلمون تأويله ومحمد بن جرير الطبرى يقول فى تفسيره القول فى تأويل قوله كذا وكذا واختلف أهل التأويل فى هذه الآية ونحو ذلك ومراده التفسير والمعنى الثانى فى لفظ السلف وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقا هو نفس المراد بالكلام فإن الكلام إن كان طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب و إن كان خبرا كان تأويله نفس الشيء المخبر به و بين هذا المعنى والذى قبله بون فان الذى قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام كالتفسير والشرح والإيضاح ويكون وجود التأويل فى القلب واللسان له الوجود الذهنى واللفظى والرسمى .

وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج سواء أكانت ماضية أم مستقبلة فإذا قيل طلعت الشمس فتأويل هذا نفس طلوعها وهذا الوضع والعرف الثالث هو لغة القرآن التى نزل بها وقد قدمنا التبيين فى ذلك

ومن ذلك قول يعقوب عليه السلام ليوسف (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك) وقوله (ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمرا وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) وقال الملأ (أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون) وقول يوسف لما دخل عليه أهله مصر وآوى إليه أبويه (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ورفع أبويه على العرش وخروا له سُجَّدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) .

فتأويل الأحاديث التى هى رؤيا المنام هى نفس مدلولها التى تؤول إليه كما قال يوسف هذا تأويل رؤياى من قبل والعالم بتأويلها الذى يخبر به كما قال يوسف (لا يأتيكما طعام ترزقانه) أى فى المنام إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما أى قبل أن يأتيكما التأويل .

وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك فى المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذى استأثر الله بعلم تأويله كما يقول كل واحد من القولين طوائف من أصحابنا وغيرهم فانهم وإن أصابوا فى كثير مما يقولونه ونجوا من بدع وقع فيها غيرهم فالكلام على هذا من وجهين:

الأول من قال إن هذا من المتشابه وأنه لا يفهم معناه فيقول أما الدليل على ذلك فإنى ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل فى هذه الآية ونفى أن يعلم أحد معناه وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمى الذى لا يفهم ولا قالوا إن الله ينزل كلاما لا يفهم أحد معناه وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة قالوا فى أحاديث الصفات تمر كما جاءت ونهوا عن تأويلات الجهمية وردوها وأبطلوها التى مضمونها تعطيل النصوص على ما دلت عليه ، ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة فى أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ويفهمون منها بعض مادلت عليه كما يفهمون ذلك فى سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك .

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل وكذلك نص أحمد فى كتاب الرد على الزنادقة والجهمية أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن وتكلم أحمد على ذلك المتشابه وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية وجرى فى ذلك على سنن الأئمة قبله . فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره بل يبين ويفسر ، فاتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه أو إلحاد فى أسماء الله وآياته .

والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه أن نقول لا ريب أن الله سمى نفسه فى القرآن بأسماء مثل الرحمن والودود والعزيز والجبار ووصف نفسه بصفات مثل سورة الإخلاص وآية الكرسى وانه يحب المتقين وأنه يرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. الخ فيقال لمن ادعى أن هذا متشابه لا يعلم معناه أتقول هذا فى جميع ما سمى الله ووصف به نفسه أم فى البعض ، فإن قال هذا فى الجميع كان عنادا ظاهرا وجحدا لما علم بالاضطرار من دين الإسلام بل كفر صريح فإننا نفهم من قوله إن الله بكل شىء عليم معنى ونفهم من قوله إن الله على كل شىء قدير معنى ليس هو الأول ونفهم من قوله (ورحمتى وسعت كل شىء) معنى ونفهم من قوله (إن الله عزيز ذو انتقام) معنى وصبيان المسلمين بل وكل عاقل يفهم هذا ، وقد رأيت بعض من ابتدع وجد من أهل المغرب مع انتسابه إلى الحديث لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة من يقول إنا نسمى الله الرحمن العليم القدير علما محضا من غير أن نفهم .

وهذه الأسماء دالة على الإله المعبود ، ودلالة القرآن على أنه رحمن رحيم ودود سميع بصير على عظيم كدلالته على أنه عليم قدير ليس بينهما فرق ، وذكره لرحمته ومحبته وعلوه مثل ذكر مشيئته و إرادته ، فإثبات بعض هذه الصفات دون البعض الآخر تحكم ودعوى أن بعض الصفات تستحيل حقيقتها على الله عز وجل دون البعض الآخر تشهٍّ لا تشهد له اللغة فما أثبت به أنه

عليم قدير من سمع وعقل تثبت به الإرادة ونظائرها ، والقول فى سائر ماسمى ووصف به نفسه كالقول فى نفسه سبحانه وتعالى ودعوى أن إثبات هذه الصفات إثبات لأعراض وليس إثباتا لأبعاض كاليد والقـدم لا تنفع ، فهذه أعراض تستلزم التجسيم والتركيب العقلى كما تستلزم اليد فى نظر الخصم التركيب الحسى فإن أثبت هذه الصفات على وجه لا تـكون أعراضا وقال إن تسميتها أعراضا لا يمنع من ثبوتهـا قيل له وتثبت اليـد والمجىء والنزول على وجه لا يؤدى لتركيب وأبعاض وكما أن الخصم يسلم أن من الممكن أن تعقل صفة ليست عرضا بغير متحيز وإن لم يكن له فى الشاهد نظير يجب عليه أن يسلم ، أن من الممكن أن تدرك صفة هى لنا بعض لغير متحيز وإن لم يكن له فى الشاهد نظير .

والذى أوقعهم فى تلك المضايق أنهم أتوا بألفاظ ليست فى الـكتاب ولا فى السنة وهى ألفاظ مجملة مثل متحيز ومحدود وجسم ومركب ونفوا مدلولها وجعلوا ذلك مقدمة مسلمة بينهم ومدلولا عليها بنوع قياس .

ذاك ملخص رأى ابن تيمية فى عقائده المتعددة التى وصلت إلينا وكلها ناطقة بأن الرجل لم يكن على النحو الذى اعتقده خصومه من تشبيه أو تجسيم أو ماروى عنه من أنه قال وهو على المنبر إن الله ينزل كنزولى هذا ونزل درجة من المنبر وهو يصرح فى عقيدته الواسطية التى دارت حولها ثلاث مجالس للمناظرة أمام نائب المماليك فى الشام استجابة لـكتاب ورد عليه من سلطان

المماليك فى مصر ما نصه (اعتقاد أهل السنة والجماعة الإيمان بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل)

ولم يكن ابن تيمية بدعا فى ذلك فالسلف كما قال الخطابى (يجرون آيات الصفات وأحاديثها على ظاهرها مع نفى الكيفية والتشبيه عنها إذ الكلام فى الصفات فرع الكلام فى الذات يحتذى فيه حذوه ويتبع فيه مثاله فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا إثبات تكييف فكذلك إثبات الصفات إثبات وجود لا إثبات تكييف ولا يمكن القول إن ذلك يستلزم أن يقال هو جسم لا كالأجسام لأنه إنما يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم وليس فى الكتاب والسنة أن الله جسم حتى يلزم هذا السؤال .

قال الحافظ أبو مسعود أحمد بن محمد النخلى دخل ابن فورك على السلطان محمود بن سبكتكين فتناظرا فى القرآن والصفات فقال ابن فورك لمحمود: لا يجوز أن يوصف الله بالفوقية لأنه يلزمك أن تصفه بالتحتية لأن من جاز أن يكون فوق جاز أن يكون تحت فقال محمود ليس أنا وصفته بالفوقية فيلزمنى أن أصفه بالتحتية وإنما هو وصف نفسه بذلك فبهت اهـ .

وقال إسحق بن راهويه دخلت يوما على عبد الله بن طاهر فقال لى يا أبا يعقوب تقول إن الله ينزل كل ليلة فقلت أيها الأمير إن الله بعث إلينا نبيا نقل إلينا عنه أخبارا بها تحلل الدماء وبها تحرم وبها تحلل الفروج وبها تحرم

وبها تباح الأموال وبها تحرم فإن صح ذا صح ذاك وإن بطل ذا بطل ذاك .

وقال إسحق بن إبراهيم الحنظلى : جمعنى وهذا المبتدع يعنى إبراهيم بن أبى صالح مجلس الأمير ابن طاهر وسألنى الأمير عن أخبار النزول فسردتها فقال إبراهيم كفرت برب ينزل من سماء إلى سماء فقلت آمنت برب يفعل ما يشاء قال فرضى عبد الله كلامى .

قال القونوى (إن التغاير بين الذوات يستدعى التغاير فى نسبة الأوصاف إليها وهذه قاعدة من عرفها أو كشف له عن سرها عرف سر الآيات والأخبار التى توهم التشبيه عند أهل العقول الضعيفة واطلع على المراد منها فيسلم من ورطتى التأويل والتشبيه وعاين الأمر كما ذكر مع كمال التنزيه .

قال الألوسى فى جلاء العينين ومتى صح للمتكلمين أن يقولوا إنه تعالى ليس عين العالم ولا داخلا فيه ولا خارجا عنه مع أن البداهة تكاد تقضى ببطلان ذلك بين شىء وشىء صح لهؤلاء الطائفة أن يقولوا ذلك فى استوائه تعالى الثابت بالكتاب والسنة فإن الله سبحانه وصفاته وراء طور العقل فلا يقبل حكمه إلا فيما كان فى طور الفكر فإن القوة المفكرة شأنها التصرف فيما فى الخيال والحافظة من صور المحسوسات والمعانى الجزئية ومن ترتيبها على القانون يحصل للعقل علم آخر بينه وبين هذه الأشياء مناسبة وحيث لا مناسبة بين

ذات الحق جل وعلا و بين شيء لا يستنبط من المقدمات التى يرتبها العقل معرفة الحقيقة .

مرام شط مرمى العقل فيه ودون مداه بيد لا تبيد

والرجل كان شديد الاعتقاد لما يقول فى هذه المسألة ولما رأى نائب المماليك فى الشام تمالؤ العلماء وتعصبهم عليه قال أنت صنفت اعتقاد الإمام أحمد فقل هذا اعتقاد أحمد يعنى الحاكم بذلك قطع المجادلة لأن ابن تيمية مصنف على مذهبه وهو مذهب متبوع فلا يعترض عليه فقال له ابن تيمية ما جمعت إلا عقيدة السلف الصالح وليس لأحمد اختصاص بهذا والإمام أحمد إنما هو مبلغ العلم الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ولو قال أحمد من تلقاء نفسه ما لم يجىء به الرسول صلى الله عليه وسلم لم نقبله وهذه عقيدة محمد صلى الله عليه وسلم وقد أمهلت كل من خالفنى فى شيء من هذه القصيدة ثلاث سنين فإن جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة التى أثنى عليها النبى صلى الله عليه وسلم يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك وعَلَيّ أن آتى بنقول جميع الطوائف من القرون الثلاثة توافق ما ذكرته من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية والأشعرية والصوفية وأهل الحديث وغيرهم اﻫ .

وليس ابن تيمية بأول من رد هذا التأويل الذى لجأ إليه المتفلسفون على النحو الذى أسلفنا ولا بأول من قال إن لهذه النصوص معانى ثابتة وليست

من المتشابه فى المعنى بل تمر كما هى دون البحث فى الكيفية بل سبقه كثير من العلماء يرون رأيه من جميع المذاهب ، وكانوا سلفيين ، ومذهبهم فى ذلك أسلم وأحكم وأعلم وفرق بين ثبوت المعنى وكيفيته ولا تلازم بينهما ، فلهذه النصوص معانى ولا يلزم لفهمها فهم كيفها وكنهها فهى ثابتة المولى عز وجل ولا ندرك كنهه وليس بلازم أن تكون معانى هذه الألفاظ فى حق الله على الوجه الذى يفهم منه فى حقنا وما من شك فى أن السلف فهموا معانى هذه الألفاظ عند ورودها وما فكروا فى البحث فى كيفياتها حتى إذا خلط علم المسلمين بالعلوم الغريبة عنه بدأنا نطبق تلك على هذا فكان ما كان من هذا الجدل الممقوت الذى لا يتفق مع شرع ولا مع لغة والذى أدى إلى خبط لا يقبل فى حق البشر فضلا عن حق خالق القوى و القدر .

قال ابن حجر فى شرحه للبخارى فى شرح قول البخارى ، وكان عرشه على الماء ـ بعد أن ذكر أقوال السلف وغيرهم وأقوال أهل اللغة فى معنى الاستواء ـ وقد نقل أبو اسماعيل الهروى فى كتاب الفاروق بسنده إلى داود بن على بن خلف قال « كنا عند أبى عبيد الله بن الأعرابى يعنى محمد بن زياد اللغوى فقال له رجل (الرحمن على العرش استوى) فقال هو على العرش كما أخبر قال يا أبا عبد الله إنما معناه استولى فقال اسكت لا يقال استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد » ومن طريق ابن النصر الأزدى سمعت ابن الأعرابى يقول

أرادنى أحمد بن أبى دؤاد أن أجد له فى لغة العرب الرحمن على العرش استوى بمعنى استولى فقلت والله ما أصبت فى هذا وقال غيره لو كان بمعنى استولى لم يختص بالعرش لأنه غالب على جميع المخلوقات . ومن طريق الوليد ابن مسلم سألت الأوزاعى ومالكا والثورى والليث بن سعد عن الأحاديث التى فيها الصفة فقال أمروها كما جاءت بلا كيف وأخرج ابن أبى حاتم فى مناقب الشافعى عن يونس بن عبد الأعلى سمعت الشافعى يقول : لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها ، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الروية والفكر فنثبت هذه الصفات وننفى عنه التشبيه كما نفى عن نفسه فقال « ليس كمثله شىء » وأما الجهمية فقد أنكروها وقالوا هذا تشبيه وقال اسحق بن راهويه إنما يكون التشبيه لو قيل يد كيد وسمع كسمع .

وقال إمام الحرمين فى الرسالة النظامية : اختلفت مسالك العلماء فى هذه الظواهر فرأى بعضهم تأويلها والتزم ذلك فى آى الكتاب وما يصح من السنن وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الله تعالى والذى نرتضيه رأيا وندين لله به عقيدة اتباع سلف الأمة للدليل القاطع على أن اجماع الأمة حجة فلو كان تأويل

هـذه الظواهر حتما لأوشك أن يكون اهتمامهم به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة و إذا انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتبع اهـ

تلك هى نصوص السلف الصالح قبل عصر ابن تيمية بقرون فما كان ابن تيمية مبتدعا فى اتباعه القرون التى شهد لها النبى عليه السلام أنها خير القرون، ولم يكن إلا متبعا لمن سبقه من علماء المسلمين وهم كما يقول فى العقيدة الحموية الكبرى (ومذهب السلف بين التعطيل و بين التمثيل فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله فيعطلون أسماءه الحسنى وصفاته العليا و يحرفون الكلم عن مواضعه و يلحدون فى أسماء الله وآياته)

كذلك كان مما امتحن به ابن تيمية وثار عليه من أجله علماء عصره كما ثاروا على الحنابلة مسألة القرآن، ورأيه فيها كما ذكر فى العقيدة الواسطية صريح لا لبس فيه ولا يغاير رأيه فيها رأى السلف وهو يقول : (إن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه ليس القرآن اسما لمجرد الحروف ولا لمجرد المعانى والقرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ و إليه يعود) أى هو المتكلم به وهو الذى أنزله من لدنه ليس كما تقول الجهمية أنه خلق فى الهواء أو غيره أو بدأ من

عند غيره ، وإليه يعود فإنه يسرى به فى آخر الزمان من المصاحف والصدور فلا يبقى فى الصدور منه كلمة ولا فى المصاحف منه حرف)

ويقول فى التسعينية وهذا الذى ذكرناه من أن القرآن كلام الله حروفه ومعانيه هو المنصوص عن الأئمة والسلف والموافق للكتاب والسنة

ويقول فى كتابه منهج السلف القويم فى تحقيق مسألة كلام الله الكريم (ومن المشهور فى كتاب صريح السنة لمحمد بن جرير الطبرى ـ وهو متواتر عنه ـ لما ذكر الكلام فى أبواب السنة قال : وأما القول فى ألفاظ العباد بالقرآن فلا أثر فيه نعلمه عن صحابى مضى ولا عن تابعى قفا إلا عمن فى قوله الشفا والغنى وفى اتباعه الرشد والهدى ومن قام مقام الأئمة الأول أبى عبد الله أحمد ابن حنبل فإن أبا اسماعيل الترمذى حدثنى قال سمعت أبا عبد الله يقول اللفظية جهمية قال ابن جرير: سمعت جماعة من أصحابنا لا أحفظ أسماءهم يحكون عنه أنه كان يقول من قال لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمى ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع قال ابن جرير: القول فى ذلك عندنا لا يجوز أن يقول أحد غير قوله اهـ

ولم يقل أحد من السلف إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله ولا حكاية له ولا قال أحد منهم إن لفظى بالقرآن قديم أو غير مخلوق فضلا عن أن يقول إن صوتى به قديم أو غير مخلوق ، بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله والناس يقرأونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم وما

بين اللوحين كلام الله وكلام الله غير مخلوق فالمداد الذى يكتب به القرآن مخلوق والصوت الذى يقرأ به هو صوت العبد والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة فالقرآن الذى يقرأه المسلمون كلام البارى والصوت الذى يقرأ به العبد صوت القارئ

واللفظ فى الأصل مصدر لفظ يلفظ لفظا وكذلك التلاوة والقراءة مصدران لكن شاع استعمال ذلك فى نفس الكلام الملفوظ المقروء المتلو وهذا هو المراد باللفظ فى إطلاقهم فإذا قيل لفظى أو اللفظ بالقرآن مخلوق أشعر أن هذا القرآن الذى يقرأونه ويلفظ به مخلوق وإذا قيل لفظى غير مخلوق أشعر أن شيئا مما يضاف اليه غير مخلوق وصوته وحركته مخلوقان لكن كلام الله الذى يقرأونه غير مخلوق والتلاوة قد يراد بها نفس الكلام الذى يتلى وقد يراد بها نفس حركة العبد وقد يراد بها مجموعهما فإذا أريد بها الكلام نفسه الذى يتلى فالتلاوة هى المتلو وإذا أريد بها المجموع فهى متناولة للفعل والكلام فلا يطلق عليها أنها المتلو ولا أنها غيره .

ولم يكن أحد من السلف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد وبالمتلو مجرد معنى واحد يقوم بذات البارى تعالى بل الذي كانوا عليه أن القرآن كلام الله تكلم الله به بحروفه ومعانيه ليس شىء منه كلاما لغيره لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما .

وقال فى فتاويه (والله تبارك وتعالى تكلم بالقرآن العربى الذى أنزله على نبينا محمد ﷺ والناس يقرأونه بأفعالهم وأصواتهم والمكتوب فى مصاحف المسلمين هو كلام الله عز وجل وهو القرآن العربى الذى أنزله على نبينا محمد ﷺ سواء أكتب بشكل ونقط أم بغير شكل ونقط والمداد الذى كتب به القرآن ليس بقديم بل هو مخلوق والقرآن الذى كتب فى المصحف هو كلام الله تبارك وتعالى منزل غير مخلوق والله تعالى تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه فجميعه كلام الله تعالى)

ومن قال أن القرآن العربى لم يتكلم به الله تعالى وانما هو كلام جبريل عليه السلام أو غيره عبر به عن المعنى القائم بذات الله تعالى فهو قول باطل فاسد بالعقل والشرع وهو قول أحدثه ابن كلاب لم يسبق إليه أحد من السلف) الخ .

وابن تيمية فى عبارته لا يناقض ما عرف عن السلف عن هذه العبارة والكلام فيها طويل ضافى الذيول قال السيد بعد مناقشة طويلة لعبارة الأشعرى المنقولة فى المواقف (فالكلام النفسى عند الشيخ أمر شامل للفظ والمعنى جميعا قائم بذاته تعالى وهو مكتوب فى المصاحف مقروء بالألسن محفوظ .

فى الصدور وهو غير الكتابة والقراءة والحفظ الحادثة وما يقال من أن الحروف والألفاظ مترتبة ومتعاقبة فجوابه أن ذلك الترتيب إنما هو فى التلفظ بسبب عدم مساعدة الآلة فالتلفظ حادث والأدلة الدالة على الحدوث يجب حملها على حدوثه دون حدوث الملفوظ جمعا بين الأدلة وهذا الذى ذكرناه و إن كان مخالفا لما عليه متأخرو أصحابنا إلا أنه بعد التأمل يعرف حقيقته اه

فما الخلاف إذن بين ابن تيمية وخصومه ؟ وما الذى يؤخذ عليه ؟ وهل أنصفه الهيتمى فيما آخذه به فى هذه المسألة وفى نظائرها التى ذكرها الألوسى فى كتاب جلاء العينين وكان من أهمها مسائل الصفات و إن كان قد ذكر غيرها كمسألة التوسل وعصمة الأنبياء وما إلى ذلك من آراء طوى فيها الطعن على ابن تيمية دون أن يذكر تفاصيل أقواله ليعرف الحق من الباطل .

تلك خلاصة آراء ابن تيمية فيما شجر بينه و بين خصومه من مسائل كلامية لم يكن فيها زنديقا ولا مبتدعا ولم يكن فيها مشبها ولا مجسما ولم يكن فيها ممثلا ولا معطلا ولكنه كان ناقلا لمذاهب السلف ونصوص العلماء ومتبعا لما فهمه هو أنه سنة محمد بن عبد الله ﷺ لا يتبع أحدا إلا حيث كان معه الدليل من قرآن أو من سنة حتى أمامه العظيم أحمد كما نقلنا ذلك آنفا، ولكن هذه الألوان العقيمة من المباحثات الفلسفية نقلت الأبحاث الكلامية إلى ميدان غير الميدان الأول، وابتدعت ألفاظا ما أنزل الله بها من سلطان ولم يعرفوا

سديد القول عن السلف الصالح فكفروا من خالفهم فى هذه المباحث حتى ولو كان معه السند الواضح من كتاب أو سنة .قال السيد صفى الدين البخارى فى كتابه القول الجلى فى ترجمة الشيخ تقى الدين بن تيمية الحنبلى : « وهذه العقيدة (يعنى العقيدة الواسطية لابن تيمية) هى بعينها عقيدة السلف والأئمة الأربعة والماتريدية والاشاعرة . والطحاوى ذكر فى عقيدته ما ذكر ابن تيمية وكذلك الأشعرى فى كتاب الإبانة ـ وهو آخر مؤلفات الاشعرى ـ إذ يقول إن الله مستو على عرشه، و إن له وجها، و إن له ميزانا بلا كيف، و إن له عينين بلا كيف ، و إن الله ينزل إلى سماء الدنيا ... الخ

ويقول ابن تيمية فى الأجوبة المصرية : ولهذا تنوع أهل السنة فى اسم الجهة وربما قال بعضهم: ليس بجهة وذلك لان هذا اللفظ بعينه ليس بمنصوص من الشارع حتى يتفقوا عليه ومعناه محتمل فمن أثبته أراد به أنه فوق العرش يعنى بلا كيف ، ومن نفاه أراد به أنه ليس فيه نفسه فلفظ الجهة فيه اشتراك وإجمال .. اه . ومعنى هذا ان الخلاف بين الفريقين لفظى وليس أحد منهم يعتقد التحيز والاتصال وابن تيمية لا يطلق لفظ الجهة لعدم وروده .

فما الذى يعاب على ابن تيمية ؟ وما ذا ينقم الناس منه ؟ أأن كان سلفيا يدين بدين الحق ويعلم أن النجاة فى سلوك الطريق الذى سار عليه السلف والسنة التى ترك النبى عليها المسلمين وأوصاهم باتباعها فى حجة الوداع .

اللهم أنه الحسد والحقد واتباع كل ناعق بغير تحقيق أو تدقيق قال الشعرانى: (وقد كان سبق منى تأليف كتاب نفيس فى علم العقائد سميته «فرائد القلائد فى علم العقائد وكتب عليه شيوخ الإسلام بمصر المحروسة سنة سبع وأربعين وتسعمائة ومدحوه وأجازوه فاحتال عليه بعض الحسدة فكتب له منه نسخة ودس فيها أمورا شنيعة من عقائد أهل الزيغ والضلال ونسبه إلىّ ودارت النسخة فى مصر نحو سنة وأنا لا أشعر وصار كل من لا خلطة لى به يضيف تلك العقائد الزائفة إلى وأنا بحمد الله برىء من ذلك والله إنى لأعرف جماعة يطعنون فى عقائد بعض العلماء الصحيحة وينسبونهم إلى التجسيم وغيره حتى بعد موتهم وما منهم أحد اجتمع بهم وإنما هى إشاعة من بعض حسادهم فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم..) اهـ ولعل الشعرانى كان يشير إلى ابن تيمية

أليست قصة الشعرانى قصة ابن تيمية وحاله بعد الذى أسلفنا حاله؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله . وإن كان ابن تيمية قد عاش ومات مظلوماً من معاصريه، مظلوماً من كثير ممن أرّخوا له أو تكلموا عنه، فالله الكفيل بأن يجزيه كفاء ما قدّم للإسلام وعقائده من خدمات وكفاء ما كتب وألف فى الذّود عن حياض كتاب الله وسنة رسول الله وسبيل المسلمين

ابن تيمية والرَّوافض

كان ابن تيمية سلفيا كما قلنا يرى أن الخير فى اتباع من سلف ، والابقاء على الجماعة الأولى ونظامها ؛ وهو يحاول من حين لآخر فى شتى رسائله أن يبين أهمية هذه المسألة . فهو يقول إن ضلال الخارجين على الإسلام ؛ والثائرين على عقائده جاء من إهمالهم اتباع القواعد التى بنى عليها ، وهو يقول فى كتابه منهاج السنة النبوية : « الأسلام مبنى على أصلين ؛ أن لا تعبد إلا الله ، وأن تعبده بما شرع لا تعبده بالبدع ، فالنصارى خرجوا عن الأصلين وكذلك المبتدعة من هذه الأمة من الرافضة وغيرهم » وهو رغم تسامحه الذى اشتهر به فى مسائل التكفير والتأثيم ورغم اعتقاده سلامة الجماعة الاسلامية فى جملتها ، وأنه لا يصار إلى التكفير إلا لضرورة إذ يقول فى كتابه «مذهب السلف القويم فى تحقيق كلام الله القديم» بعد كلام طويل فى آراء العلماء فى التكفير والتأثيم وأخذه على الخوارج والمعتزلة آراءهم فى هذه الناحية : (وإذا عرف هذا فتكفير المعين منْ هؤلاء الجهال وأمثالهم بحيث يحكم عليه بأنه مع الكفار لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم الحجة على

أحدهم بالرسالة التى يبين بها لهم أنهم مخالفون للرسول وإن كانت مقالتهم هذه لا ريب أنها كفر وهذا الكلام فى جميع تكفير المعينين مع أن بعض البدع أشد من بعض ، وبعض المبتدعة يكون فيه من الايمان والعمل الصالح ماليس فى بعض) ويقول فى منهاج السنة النبوية : والكلام فى هذه المسألة (يعنى مسألة التكفير بالذنوب) مبنى على أصلين أحدهما أن الذنب لا يوجب كفر صاحبه كما تقوله الخوارج . ولا تخليده فى النار ومنع الشفاعة فيه كما تقول المعتزلة الثانى أن المتأول الذى قصده متابعة الرسول لا يكفر ولا يفسق إذا اجتهد فأخطأ ، وهذا مشهور عند الناس فى المسائل العملية وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفروا المخطئين فيها وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا يعرف عن أحد من المسلمين وإنما هو فى الأصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم كالخوارج والمعتزلة والجهمية ووقع ذلك من كثير من أتباع الأئمة كبعض أصحاب مالك والشافعى وأحمد وغيرهم فمنهم من يكفر أهل البدع مطلقاً ثم يجعل كل من خرج عما هو عليه من أهل البدع وهذا بعينه قول الخوارج والمعتزلة والجهمية وهذا القول أيضا لا يوجد فى طائفة من أصحاب الأئمة الأربعة ولا غيرهم وليس فيهم من كفر كل مبتدع بل المنقولات الصريحة عنهم تناقض ذلك ولكن قد ينقل عن أحدهم أنه كفر من قال بعض

الأقوال ويكون مقصوده أن هذا القول كفر ليحذر ولا يلزم إذا كان القول كفراً أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل فإن ثبوت الكفر فى حق الشخص المعين كثبوت الوعيد فى الآخرة فى حقه وذلك له شروط وموانع .

قال اسحق : حدثنا وكيع عن أبى خالد عن حكيم بن جابر قال : قالوا لعلى حين قتل أهل النهروان أمشركون هم قال : من الشرك فروا قيل : فمنافقون قال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا قيل : فما هم ؟ قال : قوم حاربونا فحاربناهم وقاتلونا فقتلناهم . وحدث ابن الحكم النخعى عن رباح ابن الحارث قال : إنا لبواد وإن ركبتى لتكاد تمس ركبة عمار بن ياسر إذ أقبل رجل فقال كفر والله أهل الشام فقال عمار لا تقل ذلك فقبلتنا واحدة ، ونبينا واحد ، ولكنهم قوم مفتونون فحق علينا قتالهم حتى يرجعوا إلى الحق فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون) رغم أن ذلك كان شعار ابن تيمية فى مسائل التكفير والتأثيم فإنه لم يتوان فى تكفير الروافض وفى العمل على دحض حججهم ونقض ما كتبوا وبيان عوارهم للناس ، وأنه لم ير ثمة باباً يلجه ليخفف شيئاً من أثقال مقالاتهم وهو لهذا السبب حاول من ناحية علمية ومن ناحية عملية أن يصمد لهذه الطائفة التى يقول عنها (أنها لا تعرف أصل دين المسلمين وأنهم

باطنية ملحدون وفلاسفة صابئة خارجون عن متابعة المرسلين لا يوجبون اتباع دين الإسلام ولا يحرمون اتباع ما سواه من الأديان وأن الملل بمنزلة المذاهب والسياسات التى يسوغ اتباعها وأن النبوة فى نظرهم نوع من السياسة العادلة التى وضعت لمصلحة العامة فى الدنيا وأنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض وأن منهم من يدخل إلى سائر أصناف الإلحاد فى آيات الله وكتابه المبين وهم أكذب الناس فى النقليات وأجهل الناس بالعقليات يصدقون من المنقول ما يعلم العلماء بالاضطرار أنه باطل ويكذبون بالمعلوم المتواتر فى الأمة جيلا بعد جيل وهم تارة معتزلة وقدرية وتارة مجسمة وجبرية وأنهم أدخلوا على الدين من الفساد مالا يحصيه إلا رب العباد فملاحدة الاسماعيلية والنصيرية وغيرهم من الباطنية المنافقين من بابهم دخلوا وأعداء المسلمين من المشركين وأهل الكتاب لطريقهم وصلوا) .

هذه هى صفات الروافض فى نظر ابن تيمية ولم يكن من الممكن أن يصبر على هذا رجل سلفى كابن تيمية يرى أن عقائد الجماعة الاسلامية الأولى هى خير العقائد ، وأن العمل على وحدة الأمة على النحو الذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم واجب لا محيص عنه ، وأن ذلك الطريق الذى سلكه الروافض فى عقائدهم وفى طرق الدفاع عنها طريق لايقره الشرع ، ولا العرف الإسلامى سواء أكان من ناحية الاعتقاد فى الله عز وجل ، أم فى مقاصد

الإمامة ، أم فى بعض الأحكام الشرعية لهذا كتب ابن تيميـة كتاباً من أمتع كتبه (إن لم يكن أمتعها) وأجودها سلاسة أسلوب وقوة تعبير ، وحسن بيان للرد على الرافضة ذلك هو منهاج السـنة النبوية فى نقد كلام الشيعة والقدرية تتبع فيه عقائدهم على نحو ما بين فى كتاب منهاج الـكرامة فى معرفة الإمامة لابن المطهر الحلى ، وحاول أن ينقضها حجراً حجراً بما عهدناه فى أسلوب ابن تيميـة ، وأدلته القائمة على الحجاج القوى من كـتاب الله ، وسنة رسوله ، ولغة العرب ، بعد أن فرغ من مناقشتهم فى مسائل العقائد المتعلقـة بالله و بالأنبياء وحاجهم فى المسائل المتعلقة ببعض الفروع العملية ومسائل الفقه التى نقل فيها عن الشيعة آراء يرى ابن تيمية أنها لا تستند إلى نقل صحيـح ولـكن الشىء البارز فى مناقشة ابن تيمية للروافض الناحية السياسية المتعلقة بمسائل الإمامة وجماعة المسلمين ، وهـذه الناحية السياسية فيما نرى كانت من أشد العوامل التى دفعت بابن تيمية إلى تشديد حملاته على الروافض؛ فابن تيمية يرى أن الإمامة على الوجه الذى فهمه الروافض لا تستند إلى دليل من نقل أو عقل وأنها كانت سبباً فى فرقة المسلمين وذهاب ريحهم فليس للشيعة واحد يتفقون عليه ، واختلافهم فى الإمامة أعظم من اختلاف سائر الأمة ، وأن دعواهم عصمة الإمام الغائب ، أو المنتظر لا تحل مشكلة من مشاكل الجماعة الإسلامية ، ولذلك يقول فى مناقشته لهم إن الأمويين

كانوا خيراً فى اعتقادهم من الشيعة لأن الأمويين مع اعتقادهم بأن الإمام لا حساب عليه ولا عذاب ، وأن الله لا يؤاخذهم على مايطيعون فيه الإمام ، فإمامهم كان موجوداً استطاع أن ينفعهم فى مصالح الدين والدنيا أما هؤلاء فإنهم يرجون الخير من معدوم لا ينتفع به بحال ، وابن تيمية كان حريصاً كل الحرص على أن يقوم الإمام للمسلمين مقام النبى صلى الله عليه وسلم فى إقامة العدل والقسطاس بين الناس ، والأخذ من الظالم للمظلوم ، والدفاع عن بيضة الإسلام ، وأن يكون الراعى للمسلمين والقائد لهم ، وأن يكون معهم عائلة واحـدة هو مسئول عن اصلاح حالها والقيامة عليها ، وله عليهم حق النصيحة والأخلاص فى الطاعة متى قام بما أوجبه الله عز وجل ولهذا حمل ابن تيمية على ما يسمى بالتقية عند الشيعة التى كانت طرفا غالياً من ناحيتهم كما كان حق الخروج على الإمام عند الخوارج الطرف الآخر فـكان يرى أن الجهر بالنصيحة والاخلاص فيها وسط بين هذين الطرفين يحقق الحرية للمسلمين والمساواة بينهم ويبعد الجماعة عن رذيلة النفاق ويريحها من قلقلة الفتن والثورات ، وهو يرى أن الامام أجير لمصلحة الجماعة فيقول فى رسالته «السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية» : (دخل أبومسلم الخولانى على معاوية بن أبى سفيان فقال : السلام عليك أيها الأجير فقالوا : قل السلام عليك أيها الأمير فقال : السلام عليك أيها الأجير فقالوا : قل أيها الأمير

فقال السلام عليك أيها الأجير فقالوا قل : أيها الأمير . فقال معاوية : دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول . فقال : إنما أنت أجير استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها فإن أنت هنأت جرباها وداويت مرضاها وحبست أولاها على أخراها وفاك سيدك أجرك و إن أنت لم تهنأ جرباها ولم تداو مرضاها ولم تحبس أولاها عَلَى أخراها عاقبك سيدها) .

فمن الطبيعى اذن أن تكون نظرة الشيعة عن أئمتها المعصومين الغائبين غريبة على عقلية ابن تيمية الذى يعتقد المساواة بين المسلمين ، وأنه لا معصوم إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وأن المرجع الأول والآخر فى دين الله عز وجل هو كتاب الله وسنة رسوله .

ومن المسائل التى أوذى من أجلها ابن تيمية ، والتى أثارها نضاله مع الروافض مسألة زيارة القبور وشد الرحال إليها ؛ فابن تيمية بعقليته السلفية لم يقبل تلك القدسية التى أسبغها الروافض عَلَى القبور والمشاهد ، ولم يقبل أن يولى الناس وجوههم إلى تلك المشاهد المبنية عَلَى القبور ، فيعكفون عليها مشابهة للمشركين يحجون إليها كما يحج الحاج إلى البيت العتيق ؛ وهو يقول فى كتابه منهاج السنة (إن منهم من يجعل الحج إليها أعظم من الحج إلى الكعبة ، بل يسبون من لا يستغنى بالحج إليها عن الحج الذى فرضه الله تعالى عَلَى عباده ؛ ومن لا يستغنى بها عن الجمعة والجماعة ؛ وهذا من جنس

دين النصارى والمشركين الذين يفضلون عبادة الأوثان على عبادة الرحمن ؛ وقد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر بما ذكروه من أمر المشاهد ولا شرع لأمته مناسك عند قبور الأنبياء والصالحين؛ فالرافضة بدلوا دين الله فعمروا المشاهد ، وعطلوا المساجد مضاهاة للمشركين مخالفة للمؤمنين) وابن تيمية يرى أن هذه المغالاة فى تعظيم القبور والمشاهد وشد الرحال إليها لم يرد به كتاب ولا سنة ولا عمل من صحابة أو تابعين ؛ فقد كان السلف من الصحابة والتابعين يقصدون من زيارة القبور الاتعاظ لا التبرك ولا التوسل ولا إلى شيء من تلك الأشياء التى أحدثها المتأخرون وهو يقول فى فتواه المشهورة فى شد الرحال إلى زيارة القبور (أول من وضع هذه الأحاديث فى السفر لزيارة المشاهد التى على القبور أهل البدع من الرافضة وغيرهم الذين يعطلون المساجد ويعظمون المشاهد) وقد كانت هذه الفتوى سبباً فى حبس ابن تيمية فى قلعة دمشق لأن العامة أرجفوا به فى المدينة وقالوا : إن ابن تيمية يجعل زيارة قبرى النبى صلى الله عليه وسلم وقبور الأنبياء معصية مع أن ابن تيمية لا يمنع الزيارة الخالية عن شد الرحال بل يستحبها ويندب إليها وكتبه ومناسكه شاهدة بذلك ولم يتعرض الشيخ إلى هذه الزيارة فى الفتيا ولا قال إنها معصية ولا حكى الإجماع على المنع منها .

ولم يتردد ابن تيمية مع نضاله الكلامى ومقارعة الروافض حجة بحجة

فى أن يستنهض المسلمين لقتالهم وكتب إلى أمراء الشام يغريهم بهم وهو يعتقد أن قتالهم جهاد فى سبيل الله فقام مع جمال الدين الأفرم نائب المماليك فى الشام لمحاصرة الروافض والنصيرية فى الشام فى جبل كسروان ، وعد أهل الشام انتصار المسلمين ضد الروافض كرامة من كرامات ابن تيمية وأقبل عليه الناس عامتهم وخاصتهم زائرين مسلمين مهنئين ، وأرسل ابن تيمية بعد ذلك كتابا إلى الناصر يذكر فيه نعمة الله على المماليك بهذا النصر ويعده نعمة على المسلمين عامة وفيه يقول : (والسلطان أتم الله نعمته حصل للأمة بيمن ولايته وحسن نيته ، ما هو شبيه بما كان يجرى فى أيام الخلفاء الراشدين وما كان يقصده أكابر الأئمة العادلين من جهاد أعداء الله المارقين من الدين وهم صنفان : أهل الفجور والطغيان ، الخارجون عن شرائع الإيمان ، وهؤلاء هم التتار ونحوهم من كل خارج عن شرائع الإسلام وإن تمسك بالشهادتين أو ببعض سياسة الإسلام ، والصنف الثانى أهل البدع المارقون الخارجون عن السنة والجماعة المفارقون للشرعة والطاعة مثل هؤلاء الذين غزوا بأمر السلطان من أهل الجبل ؛ وذلك أن هؤلاء جنسهم من أكابر المفسدين فى أمر الدنيا والدين ؛ فإن المسلمين عندهم كفار مرتدون ، ولهذا السبب يقدمون الفرنجة والتتار على أهل القرآن والإيمان ولما قدم التتار إلى البلاد وفعلوا بعسكر المسلمين ما لا يحصى من الفساد فرحوا بمجىء التتار هم وسائر أهل هذا المذهب الملعون

وهـذه الطائفة كانت من أعظم الأسـباب فى خروج جانكيزخان إلى بلاد الاسلام وفى استيلاء هولاكو على بغداد .

وهذه العبارة الأخـيرة تلقى لنا ضوءا على السبب فى هذه الحملات التى حملها ابن تيمية على الروافض فهو يعتقد أنهم كانوا أداة هدم لوحدة المسلمين ومعولا فى نقض بنيان جماعتهـم ووحدة المسلمين وظهورهم وحـدة متراصة متماسكة أمام أعدائهم كان من أهـم الأغراض التى كان يعمل لها ابن تيمية والتى أفنى حياته فى الـكتابة مدافعا عنها وتعرض للإيذاء مرارا من أجلها ، وحديثه مع غازان ملك التتار يدلك على مقدار ما كان يحمل ابن تيمية من حب للإسلام و رغبة فى أن تـكون كلمة الله هى العليا ذلك أن غازان لما استولى على دمشق وذهب إليه ابن تيمية فيمن ذهب من المسلمين طلب منه غازان أن يدعو له فقال له ابن تيمية فى دعائه : (اللهـم إن كنت تعلم أنه إنمـا قاتل لتكون كلمة الله هى العليا وجاهـد فى سبيلك فأيده وانصره وإن كان للملك والدنيا والتكاثر فاصنع به كذا ؟) فـكان يدعو وغازان يؤمن على دعائه ، قال الناقل ونحن نجمع ثيابنا خوفاً من أن يقتل فيطرطس بدمه رحمه الله كفاه دفاعه عن الدين والذود عن حياضه

———

ابن تيمية والصوفية

عرضنا غير مرة إلى آراء ابن تيمية السلفية وحرصه فى كل كتاباته على أن تكون آراؤه مستمدة من السنة المطهرة ، وأن تكون أعمال المسلمين وأفعالهم مقيسة بمقياس الشرع وقوله أن كل ما ابتدع بعد العصر الأول مما لا يؤيده سنة أو عمل من سلف يجب أن لا ينظر إليه ؛ فلم يكن ابن تيمية إذن ليستسيغ هذه الآراء التى جرت فى العصور المتأخرة وكانت رغم محاولة صبغها بالدين ممزوجة بآراء الفلاسفة أو الصابئة أو زهاد الهنود وما إلى ذلك من أشياء ليس لها مسوغ من كتاب أو سنة

وابن تيمية فى كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان يعرض لأوصاف الولى وأوصاف الصوفى وأوصاف المقربين فيقول: إنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنه يجب أن تعرض أعمال الولى على ما جاء به محمد ﷺ فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف توقف فيه وأن ظهور الكرامات ليس فيه ما يدل على أن صاحبها ولى لله بل إن أولياء الله

قد اتفقوا على أن الرجل لو طار فى الهواء أو مشى على الماء لا يُغْتَرُّ به حتى ينظر متابعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموافقته لأمره ونهيه وكرامات أولياء الله أعظم من هـذه الامور ، فان هذه الأمور الخارقة للعادة إن كان صاحبها قد يكون وليا لله فقد يكون عدوا لله فإن هـذه الخوارق تـكون لـكثير من الـكفار والمشركين وأهل الـكتاب والمنافقين وتـكون لأهل البدع وتـكون من الشياطين فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شىء من هذه الأمور أنه ولى لله بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التى دل عليها الكتاب والسـنة ويعرفون بنور الايمان والقرآن وبحقائق الايمان الباطنة وبشرائع الاسـلام الظاهرة ؛ فالحقيقة حقيقة الدين دين رب العالمين وهى ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون فأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول واتباعا له ، وكل من بلغته رسالة محمد ﷺ لا يكون وليا لله إلا باتباع محمد ﷺ ، فمن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمـد ﷺ من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد فهذا كافر ملحد وإذا قال أنا محتاج إلى محمد فى علم الظاهر دون علم الباطن أو فى علم الشريعة دون علم الحقيقة هو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا إن محمـد رسول إلى الأميين دون أهل الـكتاب فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض فكذلك هو الذى يقول إنه بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر

كذلك من ادعى أن الولى أفضل من النبى فهو معاند للسنة مخالف لاجماع المسلمين إلى غير ذلك من القواعد التى ذكرها فى هـذا الـكتاب وجعلها معياراً للولاية الحقة التى تستمد من نور النبوة ومنهاج الوحى .

لم يكن من السهل اذن على ابن تيمية أن يقبل تلك العقائد الصوفية الجديدة التى خالف بها متأخرو الصوفيـة متقدميهم من الأفاضل الذين يعترف لهم ابن تيمية بالفضل و يقر بأنهم كانوا سائرين على الطريقة مستقيمين عليها كالفضـيل بن عياض وابراهيم بن أدهم وأبى سليمان الدارانى ومعروف الـكرخى والجنيد وسهل التسترى و يعدهم من صوفية أهل العلم لامن صوفية الملاحدة الفلاسفة .

وابن تيمية كما قلنا مراراً كان يكره الفلسفة و يمقت الفلاسفة رغم استعماله بعض ألفاظهم فى محاوراته وأساليبه ولايرى من الخير للأسلام أن يستعمل فى علومه هـذه المصطلحات التى لم يعرفها السلف الصالح رضوان الله عليهم. أضف لذلك اعتقاده أن هذه الألوان من التصوف كانت أثراً من آثار تعاليم الشيعة والملاحدة وأن هذه المصطلحات التى استعملوها تـكاد تـكون صورة لمصـطلحات الملاحدة . وابن تيمية على حق فى هذه الناحية فألفاظ الابدال والأنجـاب والأوتاد وما الى ذلك من ألفاظ لم تسمع من السنة المطهرة ولم

تعرف عن صاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه تكاد تكون صورة لما عند الاسماعيلية والنصيرية من السابق والتالى والناطق والأساس والجسد وما إلى ذلك من ترتيبات ما أنزل الله بها من سلطان وليس فى أولياء الله المتقين بل ولا فى أنبياء الله المرسلين من كان غائب الجسد عن أبصار الناس وما يشبه هذا إلا قول القائل ان علياً فى السحاب وان محمد بن الحنفية فى جبال رضوى وأن محمد بن الحسن فى سرداب سامرا وأن الحاكم فى جبل مصر وأن الأبدال رجال الغيب فى جبل لبنان . كذلك لفظ الغوث وخاتم الأولياء ادعاه أناس لا يحصيهم عد وهو لفظ لا أصل له وأول من ذكره محمد بن على الحكيم الترمذى . وقد عاشر ابن تيمية فى مصر والشام والعراق طوائف لا يحصيها عد من هؤلاء المتصوفة على اختلاف ألوانهم وآرائهم وما من طائفة منهم — يراها ابن تيمية خارجة عن النهج القويم — الا ثار عليها ونقدها وحاجها بل ذهب فى حجاجه مع بعض طوائفهم الى نوع من الالزام الظريف الذى لا يحسن استعماله الا ابن تيمية فقد كتب ابن تيمية بنفسه مناظرة دارت بين ابن تيمية و بين البطائحية وكانت هذه المناظرة بحضور الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء والعامة بقصر الامارة فى يوم السبت التاسع من جمادى سنة ٧٠٥ وهى مناظرة ممتعة منشورة فى مجلة المنار يقول فى ختامها :

« ومن لم يجب بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية وأمسكت سيف

الأمير وقلت هذا نائب رسول الله ﷺ وغلامه وهذا السيف سيف رسول الله فمن خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله .

ولست أخاف من الفقراء أكثر مما كانوا يخوفوننى من الروافض وقد نصرت الله وأعاننى عليهم » يعنى فى معركة جبل كسروان التى أشرنا إليها سابقاً .

ورسالته فى الواقع صورة من كل مناظراته مع خصومه فهو مستعد فى سبيل اقناعهم إلى أن يسير الى أقصى حدود الالزام الكلامى والعملى وهو مستعد أن يدخل النار وأن يصمد بالسيف للجماعات فى سبيل ارجاع الضالين إلى كتاب الله وسنة رسوله .

وهذه الرسالة تعطينا صورة عن اتصال جماعات المتصوفة إذ ذاك بتلك التشكيلات السرية التى جعلت نظام الفتوة الأسلامية شعاراً لها والتى تكونت فى ضعف الدولة لخدمة أغراض لأفراد أو جماعات واتصلت بطوائف الصوفية وتفاعلت الجماعات من الطائفتين ولابن تيمية فتاوى ومناقشات فى نظام الفتوة وصلة الصوفية به لا نريد أن نعرض له اليوم فلسنا بحاجة لها. أخذ ابن تيمية على هذه الجماعات تلبيسها عن المسلمين وتفريقها كلمة المسلمين وأخذ عليها فوق ذلك (وهو المهم) عقائدها التى اشتهرت بها تلك الصوفية الجامحة فى عصور الأسلام المتأخرة ، ولم يكن ابن تيمية كما قلنا

لينظر بعين الرضا إلى هـذه المصطلحات التى جعلها الصوفية كلمات يديرونها فيما بينهم و يرون لها معَانى ادعوا أنهم وحدهم القادرون على فهمها كالفيض والشطح والسلوك والاتصال وتلقى المعلومات عن الله مبـاشرة بطريق الأشراق .

وابن تيمية يرجع ضـلال الصوفية القائلين بالحلول والاتحاد والقائلين بسقوط التـكاليف عن بعض الناس إلى أصلين باطلين :

الأول فهمهم لمعنى الوجود فمن قائل ان الموجود واحـد فالوجود الواجب للخالق هو الوجود الممـكن للمخلوق كما يقول بذلك ابن عربى وابن سبعين وابن الفارض ، ومنهم من يفرق بين الوجود والثبوت فيزعم أن الاعيان ثابتة فى العدم غنية عن الله فى نفسها ووجود الحق هو وجودها ، والخالق مفتقر إلى الاعيان فى ظهور وجودها وهى مفتقرة إليه فى حصول وجودها ومنهم من يجعل الوجود الواجب والوجود الممكن بمنزلة المادة والصورة كما يقول الفلاسفة وذلك اضطراب فى اضطراب وتناقض وفساد وفيه من الـكفر والضلال ما هو أعظم مما عند المخالفين لدين الإسلام من أهل الأديان الأخرى .

الأصل الثانى : الاحتجاج بالقدر على المعاصى أى ترك المأمورات وفعل المحظورات فان القدر يجب الإيمان به ولا يجوز الاحتجاج به على مخالفة أمر الله ونهيه ووعده ووعيده ولابن تيمية تقسيم مبدع فيما يتعلق بموقف النـاس

من القدر يقول فيه (والناس الذين ضلوا فى القدر ثلاثة أصناف : ١ـ قوم آمنوا بالأمر والنهى والوعد والوعيد وكذبوا بالقدر وزعموا أن من الحوادث مالا يخلقه الله كالمعتزلة . ٢ ـ وقوم آمنوا بالقضاء والقدر وقالوا إن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ووافقوا أهل السنة والجماعة لكنهم عارضوا بهذا الأمر والنهى وسموا ذلك حقيقة وجعلوا ذلك معارضا للشريعة وفيهم من يقول ان مشاهدة القدر تنفى الملامة والعقاب وأن العارف يستوى عنده هذا وهذا وهم فى ذلك متناقضون مخالفون للشرع والعقل والذوق فانهم لا يسوون بين من أحسن إليهم وبين من ظلمهم ولا يسوون بين العالم والجاهل والقادر والعاجز ولا بين الطيب والخبيث بل يفرقون بينهما ويفرقون بموجب أهوائهم وأغراضهم لا بموجب الأمر والنهى فلا وقفوا مع القدر ولا مع الأمر والنهى فهم فى حبهم وبغضهم وموالاتهم ومعاداتهم بحسب هواهم وغرضهم لا بحسب أمر الله ونهيه. ومن المعلوم بالضرورة أن الأفعال تنقسم إلى ما ينفع العباد وما يضرهم والله قد بعث رسوله يأمر المؤمنين بالمعروف وينهاهم عن المنكر فمن لم يتبع شرع الله ودينه اتبع ضده من البدع والاهواء وكان احتجاجه بالقدر من الجدل الباطل ليدحض به الحق فإن قال أنا أعذر بالقدر من شهده وعلم أن الله خالق فعله ومحركه لا من غاب عن المشهود أو كان من أهل الجحود قيل له وشهود هذا وجحود هذا من القدر فهو متناول لهما ، فإن كان موجبا للفرق مع شمول

القدر لهما فقد جعل بعض الناس محمودا و بعضهم مذموما مع شمول القدر لهما وهذا رجوع إلى الفرق واعتصام بالأمر والنهى .

والصنف الثالث من الضالين فى القدر من خاصم الرب فى جمعه بين القضاء والقدر والأمر والنهى كما يذكر ذلك على لسان إبليس وهؤلاء خصماء الله وأعداؤه ، وأما أهل الإيمان فيؤمنون بالقضاء والقدر والأمر والنهى و يفعلون المأمور و يتركون المحظور و يصبرون على المقدور كما قال تعالى (أنه مَنْ يَتَّقِ و يَصْبِرِ فإنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين) .

فأقوال الصوفية المنبنية على هذين الأصلين أقوال لا يجمعها بالشريعة نسب أو سبب ومن يزعم منهم أنه يثبت عنده فى الكشف ماينافض صريح العقل أو الشرع فقد ذهب إلى أفسد مما ذهب إليه أهل السفسطة فمن المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام أعظم من الأولياء ، والأنبياء جاءوا بما تعجز العقول عن معرفته ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه وهؤلاء يدعون أن محالات العقول صحيحة وأن الجمع بين النقيضين صحيح وأن ماخالف صريح المعقول وصريح المنقول صحيح ولا ريب أنهم أصحاب خيال يتخيلون أمورا و يتوهمونها فيظنونها ثابتة فى الخارج و إنما هى من خيالهم والخيال الباطل يتصور فيه ما لا حقيقة له ، والفناء الذى عرضوا له فى مقاماتهم لم يفهموا حقيقته على وجهه فالفناء ثلاثة أقسام : فناء عن وجود السوى ، وهو أن يجعل الوجود وجودا

واحدا وهو فناء الملحدين ، وفناء عن شهود السوى وهو الذى يعرض لكثير من السالكين وهو أن يغيب بموجوده عن وجوده و بمعبوده عن عبادته و بمشهوده عن شهادته كما يحكى أن رجلا كان يحب آخر فألقى المحبوب نفسه فى الماء فألقى المحب نفسه خلفه فقال أنا وقعت فلم وقعت أنت ؟ فقال غبت بك عنى فظننت أنك أنى وهو حال من عجز عن شىء من المخلوقات إذا شهد قلبه وجود الخالق وهو غاية السلوك عند بعضهم وهذا غلط عظيم غلط فيه بشهود القدر وأحكام الربوبية عن شهود الشرع والأمر والنهى وعبادة الله وحده و إن لم يكن هذا محمودا فهو معذور ، وفناء عن عبادة السوى وهو حال النبيين وأتباعهم ، وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ماسواه و بحبه عن حب ماسواه و بخشيته عن خشية ما سواه و بالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ، وأن يفنى عن اتباع هواه بطاعة الله فلا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يعطى إلا لله ولا يمنع إلا لله وهو الفناء الدينى الشرعى الذى بعث الله به رسله وأنزل به كتبه .

ومن الطبيعى أن ارجاع أمور المتصوفة فى أفعالهم إلى موازين الشرع لتوزن بها وليحكم عليها على ضوئه لم تكن لترضى الصوفية الذين يرون فى الولاية وخصائصها أشياء يرون أن الناس غيرهم محجوبون عنها بعيدون عن إدراكها وأن أفعالهم لا تقاس بما يقاس به أفعال الناس من غيرهم بل ذهب

بعضهم إلى أكثر من ذلك فقالوا إن الأولياء والرسل من حيث ولايتهم تابعون لخاتم الأولياء يأخذون من مشكاته فان الرسالة والنبوة أعنى نبوة التشريع ورسالته ينقطعان والولاية لا تنقطع أبدا فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون إلا من مشكاة خاتم الأولياء وقد قال ابن عربى فى بعض كلامه :

مقام النبوة فى برزخ فويق الرسول ودون الولى

قال ابن تيميـة فاذا حوققوا على ذلك قالوا ان ولاية النبى فوق نبوته وان نبوته فوق رسالته لأنه يأخذ بولايته عن الله ثم يجعلون مثل ولايته ثابتة لهم ويجعلون ولاية خاتم الأولياء أعظم من ولايته وأن ولاية الرسول تابعة لولاية خاتم الأولياء الذى ادعوه .

ثار ابن تيمية على مناحى الصوفية ومناهجهم وآرائهم وخاصة عل ابن عربى وابن سبعين وابن الفارض ومن لف لفهم من علمـاء المتصوفة ونعى على ابن عربى بوجه خاص تلك الآراء التى يرى ابن تيمية أنها فلسفة يونانية خالصة وهو يقول فى رسالة (الفرقان بين الحق والبـاطل) وهؤلاء كان من أعظم أسباب ضلالهم مشاركتهم للفلاسـفة وتلقيهم عنهم فان أولئك القوم من أبعد الناس عن الاستدلال بمـا جاء به الرسول فان الرسول بعث بالبينات والهدى يبين الأدلة العقلية ويخبر الناس بالغيب الذى لا يمكنهم معرفته بعقولهم وهؤلاء المتفلسفة يقولون انه لم يفد الناس علما بخبره ولا بدلالته وإنما خاطب خطابا

جمهوريا ليصلح به العامة فيعتقدوا فى الرب والمعاد اعتقادا ينفعهم وإن كان كذبا وحقيقة كلامهم أن الأنبياء تكذب فيما تخبر به للمصلحة فامتنع أن يطلبوا من خبرهم علما وإذا لم تكن أخبارهم مطابقة للمخبر فكيف يثبتون أدلة عقلية على ثبوت ماأخبروا ولهذا لايعتنون بالقرآن ولا بتفسيره ولابالحديث ولا بكلام السلف وان تعلموا من ذلك شيئا فلأجل تعلق الجمهور به ليعيشوا بينهم بذكره لا لاعتقادهم موجبه فى الباطن .

ولم يشن ابن تيمية الغارة على عقائد هؤلاء الصوفية فحسب بل هاجمهم فيما ابتدعوه من رقص وغناء وطرب ووجد وشطح وغيبوبة وما إلى ذلك من أشياء لم يأت عليهاشاهد من كتاب ولا سند من سنة وشن النكيرعليها فى رسالته (السماع والرقص) .

تلك آراء ابن تيمية فى وجد القوم ومقدار علومهم ومن العجب أن ابن عربى فى فتوحاته قال بذلك المبدأ العام الذى قال به ابن تيمية فهو يقول فى الباب الثامن والثلاثمائة من الفتوحات :

فنجاة النفس فى الشرع فلا تك إنسانا رأى ثم حرم
واعتصم بالشرع فى الكشف فقد فاز بالخير عبيد قد عصم
كل علم يشهد الشرع له فهو علم فبه فلتعتصم
فإذا خالفه العقل فقل طورك الزم ما لكم فيه قدم

والغزالى قد قال فى الاحياء من قال (ان الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان) .

فليس عند ابن تيمية إلهام مفيد لحكم شرعى وليس عنده شريعة وحقيقة وأن مرد الأمر أولاً وآخراً للشريعة وأن طريق الوصول إلى درجات القرب الالهى سواء أكان قرب النبوة أم قرب الولاية منحصر فى طريق الشريعة التى دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار مأموراً بها فى قوله تعالى (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله عَلَى بصيرة أنا ومن اتبعنى) .

وابن تيمية مع حملاته الشديدة على الصوفية لم ينكر كرامات الأولياء ولم ينكر ما يصح أن يكون خارقا للعادة على يد من خصه الله بكرامة منهم وهو يقول فى كتابه الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن (فأولياء الله تعالى المتقون هم المهتدون بمحمد صلى الله عليه وسلم فيفعلون ما أمر به وينتهون عما نهى عنه ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه فيؤيدهم الله تعالى بملائكته وروح منه ويقذف الله تعالى فى قلوبهم من أنواره ولهم الكرامات التى يكرم الله عز وجل بها أولياءه المتقين وخيار أولياء الله تعالى كراماتهم حجة فى الدين أو لحاجات المسلمين مثلما كانت معجزات النبى ﷺ كذلك وكرامات أولياء الله انما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ

فهى فى الحقيقة تدخل فى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومما ينبغى أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الأيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوى إيمانه ويسدد حاجته ويكون من هو أكمل ولاية لله تعالى عنه مستغنيا عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لنقص ولايته ولهذا كانت هذه الأمور فى التابعين أكثر منها فى الصحابة بخلاف من يجرى عليه الخوارق لهدى الخلق أو لحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة وليس من شرط ولى الله تعالى أن يكون معصوما بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين) .

ولكن ابن تيمية ينكر ما يدعيه بعض الأولياء من اطلاع على اللوح المحفوظ لأنه لم يسمع عن رسول الله ولا عن أحد من أصحابه أو تنزل الملائكة عن الأولياء ، قال الألوسى فى تفسير قوله تعالى (ان الله عنده علم الساعة) ذكر غير واحد حكايات عن الأولياء متضمنة لأطلاع الله تعالى اياهم على ما عدا علم الساعة من الخمس وقد علمت الكلام فى ذلك وأغرب ما رأيت ما ذكره الشعرانى عن بعضهم أنه كان يبيع المطر فيمطر على أرض من يشترى منه شيئاً ومن له عقل مستقيم لا يقبل مثل هذه الحكاية وكم للقصاص أمثالها من رواية .

اصطدم ابن تيمية بالصوفيــة فى عصره وكتب لهم وكتبوا له ورسالته القيمة التى كتبها ينصح فيها الشيــخ نصرا المنبجى بمصر شاهدة بطريق الرجل السليم السلفى فى جداله مع هؤلاء القوم ولـكن الشيخ المنبجى كان أثيرا عند أرباب الدولة فى القاهرة فلما كتب إليه ابن تيمية كتاباً يشرح له عقيدة ابن عربى وابن الفارض وابن سبعين ويتقدم إليه أن يعدل عن مسايرة هـذه العقائد ومسايرة المنحلين عن الأوامر والنواهى ويشرح له التوحيـد الحق ويبطل له الحلول والاتحاد وينبهه الى عواقب انتشار هذه الأقوال وخطرها على الاسلام ويبين لى أن هـذه بدع لم يأت بها كتاب ولا سنة إلى آخر ما كتبه فى رسالته المطبوعة فى مجموعة الرسائل والمسـائل لمـا كتب له ذلك خف المنبجى إلى قضاة مصر وخاصة القاضى ابن مخلوف المالـكى واستعانوا بركن الدين الجاشنكير فحسن القضاة للأمير أن يطلبه للقـاهرة وأن يعقد له مجلس بدمشق فلم يرض المنبجى بذلك وحاول أن يستعمل السلاح الذى يمكن أن يؤثر به على سـلطان المماليك سلاح الدس والوقيعة وأفهم الأمير أن ابن تيمية لا يخشى منـه من الناحية الدينية فحسب بل ان خطره من الناحية السياسية أبعـد أثراً وأن ابن تيمية (أن أرخى له العنان) لـكان خاتمه مطافه اخراج المماليك من الحـكم كما حصل لابن تومرت فى بلاد المغرب فعقد لابن تيميـة مجلس فى دمشق ناظره فيه

الشيخ صفى الدين الهندى ثم كمال الدين بن الزملكانى وكانت الغلبة فيه لابن تيمية ـ طبعاً ـ وظل ابن تيمية على نزاع مع هذه الطوائف وكتب للسلطان أن يوقف تلك الهيئات على الموضع الذى لا يخشى منه على جلال الاسلام ولكن المنبجى كان كما قلنا صاحب الكلمة النافذة فى بلاط سلاطين المماليك يوم ذاك فاضطروا لاستدعاء تقى الدين من دمشق عسى أن يكون من وجوده واضطهاده فى مصر سبيل لارجاعه عن مكافحة هذه الطوائف وبدل أن يحاجوا ابن تيمية فى آرائه فى التصوف بدءوا يثيرون عليه فى مصر آراءه فى العقائد وصفات الله واعتقاده الجهة كما يزعمون وظلوا مع الشيخ فى أخذ ورد ونزاع استمر أياماً وشهوراً ولم يتفق خصومه فيما بينهم فقد جمعتهم المصالح والأهواء لا الدفاع عن العقائد ومبادىء الاسلام .

سجن ابن تيمية فى البرج ثم فى الجب هو وأخواه زين الدين وشرف الدين ولم يزده السجن إلا اصراراً على رأيه وثباتاً على عقيدته وظل فيه حتى جاء حسام الدين مهنا بن عيسى شيخ عربان الشام إلى مصر ليخرج الشيخ من جب بقى فيه ثمانية عشر شهراً ولا ذنب له إلا الجهر بما يعتقد والحياة فى سبيل الله والاستعداد للموت شهيداً فى سبيل الله غير مبال بالحضور مع هؤلاء الذين لاهم لهم من التصوف إلا اشباع بطونهم والاكتفاء بما تدره الخوانق والربط والزوايا من أرزاق لا يستحقون منها نقيراً ولا قطميرا

يسهر هو يكتب ويحرر دفاعا عن دين الله وينامون هم وينعمون جريا مع الهوى والشيطان ويحاولون استعداء العامة عليه وتولى كريم الدين الأربلي وابن عطاء أهاجة الناس حتى اذا جاء من ينصح الشيخ بأخذ الحذر ويعلمه أن الناس قد جمعوا له كان جوابه حسبنا الله ونعم الوكيل ان هم إلا كالذباب ورفع كفه إلى فيه ونفخ فيه .

ومن الطريف من حياة ابن تيمية التى وهبها لله ما قاله ابن عبد الهادى فى العقود الدرية (ولما دخل الحبس وجد المحابيس مشتغلين بأنواع من اللعب يتلهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد ونحو ذلك من تضييع الصلوات فأنكر الشيخ عليهم ذلك أشد الانكار وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه إلى الله بالأعمال الصالحة والتسبيح والاستغفار والدعاء وعلمهم من السنة ما يحتاجون إليه ورغبهم فى أعمال الخير وحضهم على ذلك حتى صار الحبس بما فيه من الاشتغال بالعلم والدين خيراً من الزوايا والربط والخوانق والمدارس وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الاقامة عنده وكثر المترددون إليه حتى كاد السجن يمتلىء منهم ، ومن الغريب أن يكون نظام السجون عندهم فى ذلك الوقت على النحو الذى وصفه ابن عبد الهادى وبهذه المناسبة نرى من الخير أن نذكر رأى ابن تيمية فى العقوبة بوجه عام وفى التأديبات والقصد منها ليتبين لنا سر ذلك المسلك الذى سلكه فى

السجن قال فى منهاج السنة النبوية (والعقوبات الشرعية إنما شرعت رحمة من الله بعباده فهى صادرة عن رحمة الله و إرادة الاحسان لهم ولهذا ينبغى لمن يعاقب الناس على الذنوب أن يقصد بذلك الإحسان إليهم والرحمة لهم كما يقصد الوالد تأديب ولده وكما يقصد الطبيب معالجة المريض والأنبياء أطباء الدين والقرآن أنزل الله شفاء لما فى الصدور فالذى يعاقب الناس عقوبة شرعية إنما هو نائب له وخليفة له فعليه أن يفعل كما فعل على الوجه الذى فعل ولهذا قال تعالى « كنتم خيرَ أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهَوْنَ عن المنكر وتؤمنون بالله » قال أبو هريرة كنتم خير أمة أخرجت للناس تأتون بهم فى الأقياد والسلاسل تدخلونهم الجنة . أخبر أن هذه الأمة خير الأمم لبنى آدم فإنهم يعاقبونهم بالقتل والأسر ومقصدهم بذلك الإحسان إليهم وسوقهم إلى كرامة الله ورضوانه و إلى دخول الجنة وقد يهجر الرجل عقوبة وتعزيرا والمقصود بذلك ردعه وردع أمثاله للرحمة والإحسان لا للتشفى والانتقام كما هجر النبى عليه السلام الثلاثة الذين خلفوا .

صبر ابن تيمية على أذى الأمراء وعلى أذى السجن وعلى أذى العامة الذين تكنفوه من كل جانب ولاحقوه فى كل مكان وتربص له أحد الفقهاء مع بعض العامة فى مكان خال وأساءوا عليه الأدب وضربوه « وحصلت بسبب

ذلك فتنة تجمع فيها غوغاء الحسنية فى القاهرة انتصارا للشيخ وهو يدفعهم ويطلب منهم الصبر احتسابا لله» .

وقد صدق الله وعده فى قوله عز من قائل ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز فما كان لرجل غير ابن تيمية بذلك الإيمان القوى وهذه العقيدة الثابتة التى لم تزدها ملاحاة خصومه إلا قوة ويقيناً . وابن تيمية فى أحرج ساعات اضطهاده لم يخالجه شك فى أن عليه واجباً دينياً كعالم من علماء المسلمين وخليفة عن رسول الله فى تبليغ دينه إلى الناس وأنه يجب عليه أن يبلغ هذه الرسالة مهما التوت عليه الطرق أو نبت به المنازل أو جفاه الأصدقاء أو تألب عليه الأعداء وتتمثل لنا هذه الصورة فى نفسية ابن تيمية من كتاب كتبه إلى والدته يقول فى بعضه: «كتابى إليكم عن نعم من الله عظيمة ومنن كريمة وآلاء جسيمة نشكر الله عليها ونسأله المزيد من فضله ، ونعم الله كلما جاءت فى نمو وازدياد وأياديه جلت عن التعداد وتعلمون أن مقامنا الساعة فى هذه البلاد إنما هو لأمور ضرورية متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا ولسنا والله مختارين للبعد عنكم ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم ولكن الغائب عذره معه وأنتم لو اطلعتم على باطن الأمور فإنكم والحمد لله ماتختارون الساعة إلا ذلك ونسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة ولا يظن الظان أنا نؤثر على قربكم شيئا من أمور الدنيا قط بل ولا نؤثر من أمور الدين

ما يكون قريبكم أرجح منه ولكن ثم أموراً كباراً نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها والشاهد يرى مالا يرى الغائب) .

ظل ابن تيمية كما قلنا تتقاضاه الأيام دين الأحرار فمن سجن إلى سجن فهو فى مصر سجين فى سجن القضاة بحارة الديلم قريباً من الأزهر وهو فى الإسكندرية فى برج مليح مطبق له شبا كان أحدهما إلى جهة البحر كما يقول بعض من ترجم له (ولعله قلعة قايتباى) وفى دمشق فى قلعتها فإن قدر له أن يتنسم ريح الحرية فيذهب إلى مسجد من مساجد الله يؤدى ما يجب على كل عالم من علماء المسلمين أن يؤديه تكنفه الواشون من كل جانب وسد عليه الغوغاء منافذ السبل وأخذ جماهير العلماء عليه بآفاق السماء وهو يتقبل عوادى الأيام بصدر رحب ويعلم أن ذلك هو الطريق الحق الوحيد لنشر العقائد الحقة وله فى رسول الله أسوة حسنة وفى السلف الصالح الذين تجرعوا غصص الأيام فى سبيل حمل الدين والقيام عليه . ولولا رجال من طراز ابن تيمية ما كنا لنستشرف مبادئ السلف الحقة وما كنا لنعرف الحق إلا مشوبا برأى ضال مبتدع أو ملبس بحيلة متحيل يرى أن دين الله تبع لهواه وأن ذوقه أو وجده هو مقياس الحق لا الحق والشرعة والمنهاج الذى جاء به مولانا وسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه .

ابن تيمية والفقهاء

لم يكن نزاع ابن تيمية مع الفقهاء ليأخذ ذلك الوضع العنيف الذى أخذه نزاعه مع علماء الكلام وزعماء الصوفية والسر فى ذلك – فيما نرى – أن ابن تيمية فى عقائده التى كان ينشرها ويدافع عنها كان مخالفاً لآراء المسلمين التى اشتهرت بينهم يومذاك فى العقائد والتى حاول رجال الدولة أن يفرضوها على الناس فرضاً كما ذكرنا فى قصة الأيوبيين ومحاولة إلزام أهل مصر بمذهب الأشاعرة التى نقلها المقريزى، فكان من الصعب أن يرجع الناس بعد تلك القرون الطويلة إلى آراء ابن تيميــة السلفية ويتركوا تلك العقائد التى غشيها ما غشيها من ألوان الفلسفة، كما أن نزاعه مع الصوفية كان نزاعا مع جمهرة الشعب الذين ينتسبون إلى رجال الصوفية والذين كانوا يذهبون إليهم مستروحين بالقرب منهم راجين منهم البركة والخير والعافيـة ويُلَبِّس عليهم هؤلاء بمخاريق ما أنزل الله بها من سلطان فالكرامة فى يدهم أين شاءوا ومتى شاءوا وعقلية العامة يسهل عليها أن تخضع لهـذا النوع من التلبيس والإغراء. ولم يكن ابن تيمية يطيق صبراً على أمثال هذه الأمور فظل يحاربها

وهو لا يعلم أنه يستجلب غضب العامة بل ويستوجب سخط أصحاب الدولة الذين وقعوا تحت سلطان هؤلاء المتصوفة واستطاع بعضهم كالشيخ نصر المبنجى أن يملى إرادته على المظفر بيبرس وأن يملى غيره إرادته على غير المظفر وكانت أبواب البلاط مقفلة فى وجه شكايات ابن تيمية والمنتصرين له وبعض سلاطين المماليك كان يخشى نفوذ ابن تيمية بل كان يخشى ما زعمه بعض خصوم ابن تيمية من أنه يريد أن يكون فى المشرق كابن تومرت فى بلاد المغرب وأن ينزل المماليك من عليائهم لذلك كان النزاع بين هاتين الطائفتين (أى علماء الكلام والصوفية) نزاعا عنيفاً لم يدخر فيه ابن تيمية وسيلة للإقناع بالحجج من كتاب الله وسنة رسوله وآراء السلف ولم يدخر خصومه وسيلة فى رميه بما يملكون من سلاح (وهو مفلول كهام) بالتكفير والتأثيم والزندقة والتمويه بما لم ينزل به الله من سلطان من فلسفة إغريق أو صابئة وهنود وباستحداث أسماء ومصطلحات لم يعرفها السلف الأول الذى مضى من عصره فى دهشة النبوة ما مضى وهو لا يعرف من العقيدة إلا ما يجده فى كتاب الله وسنة رسوله ويفهم الألفاظ كما هى دالة على مدلولاتها لا تحريف فيها ولا تأويل ولا لياً بالألسن مما تاهت فيه عقول العامة فى بيداء لم يروا لظلامها صبحاً ولا لليلها نهاراً وكادت الحنيفة السمحة يعوج طريقها وتلتوى بسالكها لولا رجال مثل ابن تيمية وهبوا نفوسهم لله وصدقوا ما عاهدوا الله

عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

أما نزاعه مع الفقهاء فالخطب فيه هين فابن تيمية كما أسلفنا عند الكلام على حياته العلمية لم يخالف الفقهاء فى أصولهم العامة التى اعتقدوها مصادر للتشريع وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس على النحو الذى ذكرناه عند الكلام على أصول أحمد واعترف بما اعترف به الفقهاء من المصلحة المرسلة مع تحفظ فيها إذ يقول :

الطريق السادس « المصالح المرسلة وهو أن يرى المجتهد أن هذا الفعل يجلب منفعة راجحة وليس فى الشرع ما ينفيه وفى هذا الطريق خلاف مشهور فالفقهاء يسمونها المصالح المرسلة ومنهم من يسمونها الرأى و بعضهم يقرب إليها الاستحسان وقريب منها ذوق الصوفية ووجدهم و إلهاماتهم فإن حاصلها أنهم يجدون فى القول والعمل مصلحة فى قلوبهم وأديانهم و يذوقون طعم ثمرته ، وهذه مصلحة لكن بعض الناس يخص المصالح المرسلة بحفظ النفوس والأموال والأعراض والعقول والأديان وليس كذلك بل المصالح المرسلة فى جلب المنافع وفى دفع المضار وما ذكروه من دفع المضار عن هذه الأمور الخمسة فهو أحد القسمين وجلب المنفعة يكون فى الدنيا وفى الدين ففى الدنيا كالمعاملات والأعمال التى يقال فيها مصلحة للخلق من غير حظر شرعى وفى الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهادات التى

يقال فيها مصلحة للانسان من غير منع شرعى فمن قصر المصالح على العقوبات التى فيها دفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم فقط فقد قصر وهـذا فصل عظيم ينبغى الاهتمام به فإن من جهته حصل فى الدين اضطراب عظيم وكثير من الأمراء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها بناء على هذا الأصل وقد يكون منها ماهو محظور فى الشرع ولم يعلموه وربما قدم على المصالح المهدية كلاما بخلاف النصوص ، وكثير من أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعاً بناء على أن الشرع لم يرد بها ففوت واجبات ومستحبات أو وقع فى محظورات ومكروهات، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعلمه ، وحجة الأول أن هذه مصلحة والشرع لا يهمل المصالح بل قد دل الكتاب والسنة والإجماع على اعتبارها . وحجة الثانى أن هـذا أمر لم يرد به الشرع نصاً ولا قياساً ، والقول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة فما من شىء يقرب إلى الجنـة إلا وقد حدثنا به النبى صلى الله عليه وسلم وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك . لكن ما اعتقده العقل مصلحة وإن كان الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر أو أنه ليس بمصلحة أو اعتقد مصلحة لأن المصلحة هى المنفعة الحاصلة أو الغالبة. وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشىء ينفع فى الدين والدنيا ويكون فيه منفعة

مرجوحة بالمضرة ، كما قال تعالى فى الخمر والميسر « قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بدع أهل الكلام وأهل التصوف وأهل الرأي وأهل الملك حسبوه منفعة أو مصلحة نافعاً وحقاً وصوابا ، ولم يكن كذلك بل كثير من الخارجين على الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس يحسب كثير منهم أن ماهم عليه من الاعتقادات والعبادات والمعاملات مصلحة لهم فى الدين والدنيا ومنفعة لهم فقد ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » .

وقال فى رسالة معارج الوصول : « ومعرفة الإجماع فقد تتعذر كثيراً أو غالباً فمن ذا الذى يحيط بأقوال المجتهدين بخلاف النصوص فأن معرفتها ممكنة متيسرة » والكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين وإجماع الأمة فى نفسه حق والقياس الصحيح حق فإن الله بعث رسله بالعدل وأنزل الميزان مع الكتاب والميزان يتضمن العدل وما يعرف به العدل وقد فسروا إنزال ذلك بأن ألهم العباد معرفة ذلك والله ورسوله يسوى بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين ، وهذا هو القياس الصحيح وقد ضرب الله فى القرآن من كل مثل وبين بالقياس الصحيح وهى الأمثال المضروبة مابينه من الحق لكن القياس الصحيح يطابق النص فأن الميزان يطابق الكتاب والله أمر نبيه أن يحكم

بما أنزل وأمره أن يحكم بالعدل فهو أنزل الكتاب وإنما أنزل الكتاب بالعدل .

وابن تيمية ـ كما يظهر من رسالته ـ لا يعرف القياس على النحو الذى عرفه الفقهاء فقد سئل عما يقع فى كلام كثير من الفقهاء من قولهم هذا خلاف القياس لما ثبت بالنص أو قول الصحابة أو بعضهم وربما كان حكما مجمعاً عليه كقولهم : السلم على خلاف القياس والإجارة على خلاف القياس فأجاب بقوله: «أصل هذا أن تعلم أن لفظ القياس لفظ مجمل يدخل فيه القياس الصحيح والقياس الفاسد فالقياس الصحيح هو الذى وردت به الشريعة وهو الجمع بين المتماثلين والفرق بين المختلفين الأول قياس الطرد والثانى قياس العكس وهو من العدل الذى بعث به الله رسوله فالقياس الصحيح مثل أن تكون العلة التى علق بها الحكم فى الأصل موجودة فى الفرع من غير معارض فى الفرع يمنع حكمها ومثل هذا القياس لا تأتى الشريعة بخلافه قط وكذلك القياس بإلغاء الفارق وهو أن لا يكون بين الصورتين فرق مؤثر فى الشرع فمثل هذا القياس لا تأتى الشريعة بخلافه وحيث جاءت الشريعة باختصاص بعض الأنواع بحكم يفارق به نظائره فلا بد أن يختص ذلك النوع بوصف يوجب اختصاصه بالحكم ويمنع مساواته لغيره لكن الوصف الذى اختص به قد يظهر لبعض الناس وقد لا يظهر وليس من شرط القياس

الصحيح المعتدل أن يعلم صحته كل أحد فمن رأى شيئاً من الشريعة مخالفاً للقياس فإنما هو مخالف للقياس الذى انعقد فى نفسه ليس مخالفاً للقياس الصحيح الثابت فى نفس الأمر . وحيث علمنا أن النص جاء بخلاف قياس علمنا قطعاً أنه قياس فاسد بمعنى أن صورة النص امتازت عن تلك الصور التى يظن أنها مثلها بوصف أوجب تخصيص الشارع لها بذلك الحكم فليس فى الشريعة مايخالف قياساً صحيحاً لكن فيها مايخالف القياس الفاسد و إن كان من الناس من لا يعلم فساده » . ثم مضى ابن تيمية فى رسالته التى كتبها فى معنى القياس يستقصى المواضع التى ظن الفقهاء أنها على خلاف القياس ويرجعها إلى القياس الصحيح الذى اعتبره الشارع و يقول إن عامة الخطأ الذى وقع فيه الناس جاء من الأقيسة الفاسدة التى يسوى فيها بين الشيئين لاشتراكهما فى بعض الأمور مع أن فيهما من الفرق ما يوجب أعظم المخالفة .

ومما ذكره ابن تيمية من رأى فى مصادر التشريع واعتباره الإجماع حجة والقياس الصحيح حجة والمصلحة المرسلة حجة إذا كانت مستندة إلى شاهد من كتاب أو سنة نرى أن ما أخذه بعض العلماء « كالأستاذ جولد زيهر » . من أن آراءه فى الإجماع قد أهدرت اعتبار الوضع التاريخى العملى لبعض المسائل وعاقت تقدم الفقه الإسلامى ونموه لا يستند إلى أساس صحيح .

فابن تيمية كما علمنا لا يهدر الإجماع مطلقا بل يعتبر كل أنواع الإجماع الصحيح إذا كان لها مستند ويعتبر العرف القائم على المصلحة الحقة ويعتبر القياس الصحيح إذا كان على النحو الذى جاء به الشارع ويهدر ما عدا ذلك من أمور لا تستند إلى سند حق حتى ولو اتفق الناس عليه أو تعارفوه ، ولا يقر ذلك العرف الباطل وإن أدى إلى عدم تطور الفقه ومسايرته للزمن كما يقول جولد زيهر ، فليس الفقه والتشريع فى نظر ابن تيمية إلا القانون الذى يسد حاجات الناس ويشتق من طبيعة نظامهم الاجتماعى (كما سنعرض لرأيه فى المعاملات فيما بعد) على الوجه الذى رآه الشارع الخبير بمصالح الناس فى دينهم ودنياهم لا على الوجه الذى رأوه هم .

وابن تيمية ممن يعتقدون كما أسلفنا أن نصوص الشريعة الإسلامية وافية بحاجات الناس لأنها وضعت القواعد الكلية التى يمكن ـ لو طبقت تطبيقا حسنا ـ أن تحل ما يجد لهم من مشاكل على ضوء كتاب الله وسنة رسوله ، وهو ينعى على الناس تقصيرهم فى محاولة تفهم نصوص الشريعة الإسلامية تفهما كاملا يغنيهم فى حل ما يعرض لهم من مسائل فى شتى فروع الشريعة العملية وهو يأمر القادرين على الاجتهاد المستوفين لشرائطه أن يلجوا باب الشريعة الحقة فيغترفوا من بحرها ويستفيدوا من كنزها دون التزام لتقليد مذهب ويقول كما قال الإمام أحمد : لا تقلدنى ولا تقلد مالكا ولا الشافعى

ولا الثورى وتعلم كما تعلمنا ، وحرام على الرجل أن يقلد فى دينه الرجال فإنهم لم يسلموا من أن يغلطوا ، والتفقه فى الدين فرض فمن لم يعرف ذلك لم يكن متفقها فى الدين .

وابن تيمية لا يجوز للقادر على الاستدلال أن يقلد إلا عند الحاجة كما إذا ضاق الوقت عن الاستدلال و يوجب على المجتهد القادر أن يجتهد فى الفن أو الباب أو المسألة التى يقدر عليها فالاجتهاد عنده يقبل التجزى والانقسام . وقد قال فى الفتاوى: «فمن نظر فى مسألة تنازع فيها العلماء ورأى مع أحد القولين نصوصا لم يعلم لها معارضا بعد نظر مثله فهو بين أمرين إما أن يتبع قول القائل الآخر بمجرد كونه الإمام الذى اشتغل على مذهبه ، ومثل هـذا ليس بحجة شرعية بل مجرد عادة يعارضها عادة غيره اشتغاله على مذهب إمام آخر ، و إما أن يتبع القول الذى ترجح فى نظره من النصوص الدالة عليه وحينئذ فتكون موافقته لإمام يقاوم ذلك الإمام وتبقى النصوص سالمة فى حقه عن المعارض بالعمل فهذا هو الذى يصلح ، أما إذا قدر على الاجتهاد التام الذى يعتقد معه أن القول الآخر ليس معه ما يدفع به النص فهذا يجب عليه اتباع النصوص و إن لم يفعل كان متبعا للظن وما تهوى الأنفس وكان من أكبر العصاة لله ولرسوله ، بخلاف من يقول قد يكون للقول الآخر حجة راجحة على هـذا النص وأنا لا أعلمها فهذا يقال له: قد قال الله تعالى: فاتقوا الله ما استطعتم والذى

تستطيعه من العلم والفقه فى هذه المسألة قد دلك على أن هذا القول هو الراجح فعليك أن تتبع ذلك ثم إن تبين لك فيما بعد أن للنص معارضا راجحا كان حكمك فى ذلك حكم المجتهد المستقل إذا تغير اجتهاده ، وانتقال الإنسان من قول إلى قول لأجل ما يتبين له من الحق هو محمود فيه بخلاف إصراره على قول لا حجة معه عليه .

فابن تيمية كما ترى فتح باب الاجتهاد لكل قادر حتى قال بعض المستشرقين إن فتح تيمية باب الاجتهاد على هذا النحو قد يبدو غريبا فى بادئ الرأى مع ما عرف عنه من اتباع إلى أوسع مدى للسلف وآراء السلف وبذلك لا يمكن القول بأن موقف ابن تيمية عطل نمو الفقه الإسلامى وكل ما كان يرمى إليه ابن تيمية أن تكون قوانين المسلمين الشرعية والآراء الفقهية التى يعملون بها مستندة إلى أساس من الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح فإن رأى المسلمون أن شيئا أجدى عليهم ظاهرا وليس له شاهد من شريعة محمد ﷺ وجب عليهم أن يطرحوه فمرد الأمور إلى الله ورسوله وفى كتابه الكريم وسنة نبيه المطهرة الشفاء والغناء (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) على أن ابن تيمية كان مضطرا بحكم الحالة الاجتماعية التى كانت فيها البلاد الإسلامية فى القرن السابع والثامن الهجريين وبحكم الانحلال الذى أصاب المسلمين من جراء نكبات المغول وما قاموا به وما كان

عليه المسلمون من بعد عن معين الشريعة كان مضطرا أن يقف هذا الموقف الذى وقفه ليصلح من حال المسلمين وينهض بهم فى شتى نواحيهم الدينية وهو يشبه الموقف الذى وقفته أوربا فى القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين عصر النهضة والإصلاح الدينى على يد لوثر ومن جاء بعده ليصلحوا من حال الكنيسة وحال المسيحية فى ذلك الوقت .

وابن تيمية فى قوله بوجوب أن تكون الأمور كلها مردودة إلى كتاب الله وسنة رسوله لم يكن بدعا فما من عالم من علماء المسلمين إلا وقال بهذا القول فلا حاكم إلا الله عز وجل ، وما من عالم إلا وأمر بالاتباع ونهى عن الابتداع على خلاف فى التفصيلات وأن من حاول من العلماء شيئا غير منصوص عليه ما كان ليتردد فى أن يجد له شاهدا من المنصوص ، وكل الفرق أن ابن تيمية كان جريئا لا يرى المواربة فى الحق والشرع ولا يرى التحايل على حكم من أحكام الله وأن كل حيلة من الحيل تغاير السنة المطهرة التى تركنا عليها النبى ﷺ وجعل ليلها كنهارها وأن الأشياء التى لا تتفق مع مراد الشارع ومثله فى الأحكام فهى باطلة ، ولا نظن فقيها من الفقهاء قد وسع الباب فى مسائل التشريع التى ترجع إلى أمور الدنيا مثل ابن تيمية وهو يقول فى فتاواه فى العقود وما يجب لها ما نصه: « تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينهم وعادات يحتاجون إليها فى دنياهم . فاستقراء أصول

الشريعة أن العبادات التي أوجبها الله وأباحها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع ، وأما العادات فهى ماعتاده الناس فى دنياهم مما يحتاجون إليـه والأصل فيـه عدم الحظر فلا يحظر منـه إلا ما حظره الله ورسوله وذلك لأن الأمر والنهى مما شرع الله تعالى والعبادة لابد أن تـكون مأمورا بها فما لم يثبت أنه مأمور كيف يحكم عليه بأنه عبادة وما لم يثبت من العادات أنه منهى عنه فـكيف يحكم عليـه أنه محظور و إذا كان كذلك فالبيع والهبة والإجارة وغيرها من العادات التى يحتاج الناس إليها فى معاشهم كالأكل والشرب واللباس فالشريعة جاءت بالعادات الحسنة وحرمت منها ما فيه فساد وأوجبت منها مالا بد منه وكرهت مالا ينبغى واستحبت ما فيه مصلحة راجحة فى أنواع هذه العادات ومقاديرها وصفاتها و إذا كان كذلك فالناس يتبايعون و يتآجرون كيف شاءوا مالم تحرمه الشريعة كما يأكلون ويشربون كيف شاءوا مالم تحرمه الشريعة والأصل فى العقود حلالهـا وحرامها أن الله حرم فى كتابه أكل أموالنا بيننا بالباطل وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم أنتم أعلم بأمر دنياكم فأما ما كان من أمر دينكم فإلى . وأصول أحمد رضى الله عنه تجرى على أن الأصل فى العقود والشروط الجواز والصحة ولا يحرم و يبطل منها إلا ما دل على تحريمـه و إبطاله نص أو قياس عند من يقول به وما لك قريب منه لكن أحمد أكثر تصحيحا للشروط وخالفهم فى ذلك الظاهرية ويشبه قولهم كثير مما بنى على أصول أبى حنيفة

والشافعى وطائفة من أصحاب مالك إذ يعللون بطلان العقود بكونها لم يرد بها أثر أو قياس، ذلك أن أفعالنا فى الأعيان من الأخذ والزكاة الأصل فيها الحل وإن غيرت حكم العين فكذلك أفعالنا فى الأملاك بالعقود ونحوها الأصل فيها الحل وإن غيرت حكم الملك وسبب ذلك أن الأحكام الثانية بأفعالنا كالملك الثابت بالبيع وملك البضع الثابت بالنكاح نحن أحدثنا أسباب تلك الأحكام والشارع أثبت الحكم لثبوت سببه منا ولم يثبته ابتداء كما أثبت إيجاب الواجبات وتحريم المحرمات المبتدأة فإذا كنا نحن المثبتين لذلك الحكم ولم يحرم الشارع علينا رفعه، لم يحرم علينا رفعه فمن اشترى عينا فالشارع أحلها له وحرمها على غيره لإثباته سبب ذلك وهو الملك الثابت بالبيع ولم يحرم الشارع عليه رفع ذلك فلأن يرفع ما أثبته على أى وجه أحب مما لم يحرمه الشارع عليه كمن أعطى رجلا مالا فالأصل أن لا يحرم عليه التصرف فيه وإن كان مزيلا للملك الذى أثبته المعطى مالم يمنع منه مانع .

وسر المسألة فى هذا الباب أن الأحكام الجزئية من حل المال لزيد وحرمته على عمرو لم يشرعها الشارع شرعا جزئيا وإنما شرعها شرعا كليا بمثل قوله وأحل الله البيع وحرم الربا وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم وهذا الحكم الكلى ثابت سواء وجد ذلك البيع المعين أم لم يوجد فإذا وجد بيع معين أثبت ملكا معينا فهذا المعين سببه فعل العبد فإذا رفعه

العبد فإنما رفع ما أثبته هو بفعله لا ما أثبته الله من الحكم الكلى إذ ما أثبته الله من الحكم الجزئى إنما هو تابع لفعل العبد فقط لأن الشارع أثبته ابتداء وإنما توهم بعض الناس أن رفع الحقوق بالعقود والفسوخ مثل نسخ الأحكام وليس كذلك فإن الحكم المطلق لا يزيله إلا الذى أثبته وهو الشارع وأما هذا المعين فإنما ثبت لأن العبد أدخله فى المطلق وإدخاله فى المطلق إليه فكذلك إخراجه والشارع لم يحكم عليه فى المعين بحكم أبدا مثل أن يقول هذا الثوب بعه أو لا تبعه وهبه أو لا تهبه وإنما حكم على المطلق الذى إذا دخل فيه المعين حكم على المعين وفرق بين تعيين الحكم المعين الخاص الذى أثبته العبد بإدخاله فى المطلق وبين تعيين الحكم العام الذى أثبته الشارع عند وجود سببه من العبد اهـ

تلك قاعدة جليلة لابن تيمية لا يوجد من الفقهاء من قال بمثلها ولا توجد قاعدة من قواعد الشريعة أوسع من هذه القاعدة يمكن أن تساير الزمن وأن تجعل الفقه الإسلامى صالحا للتطبيق على كل الحوادث التى لا يوجد فيها بخصوصها نص مانع وأن أمور الدنيا كلها أو بعبارة أدق المعاملات يمكن أن نجد لها على ضوء هذه القاعدة حلولا نيرة واضحة على ضوء كتاب الله وسنة رسوله والإذن العام من الشارع فيما لم يرد به تحريم خاص .

كان ابن تيمية إذا حرا فى اختيار ما يراه من الآراء متفقا مع ما صح عنده من فهم لكتاب أو حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فى بعض المسائل يميل إلى مذهب أبى حنيفة وفى الآخر إلى مالك وهكذا وإن كان يبدو عليه أنه دائما فى أمور المعاملات يميل إلى أحمد ومالك ولم يمنعه ذلك من أن يكون له اختيارات أفتى فيها بخلاف المذاهب الأربعة أو بخلاف المشهور من مذاهبهم . ومن المسائل التى أثارت الضجة على ابن تيمية فى عصره وحوكم من أجلها وصدر من سلطان المماليك مرسوم بالمنع من الفتوى فيها مسألة الحلف بالطلاق وتقدم العلماء إلى ابن تيمية فى سنة ٧١٨ هـ راجين أن يترك الإفتاء فى مسألة الحلف بالطلاق وعقد من أجل هذه المسألة مجالس . وكان خاتمة المطاف أن سجن ابن تيمية بشأنها فى سنة ٧٢٠ هـ فى قلعة دمشق و بقى فيها خمسة أشهر وثمانية عشر يوما . وكذلك مسألة التكفير بالحلف بالطلاق وعدم وقوع الطلاق المحرم وابن تيمية (رغم تشنيع السبكى عليه وتأليفه كتابا فى الرد على ابن تيمية فى هذه المسألة) كان متابعاً لبعض الآراء المشهورة عن السلف فى عدم وقوع الطلاق لو قال الحرام يلزمنى لا أفعل كذا وأنهم كانوا يعدونها يميناً من الأيمان ، كذلك مسألة عدم وقوع الطلاق المحرم كتطليق المرأة فى غير طهر ، ومتابعاً لابن المسيب وجماعة من التابعين وكذلك الطلاق الثلاث ووقوع الواحدة به ..

وما نرى داعيا للإطالة فى هذه المسألة فقد فعلت الأيام فعلها وما كان يحاكم من أجله ابن تيمية على يد المماليك فى الشام ومصر ، أصبح قانوناً رسمياً فى الدولة المصرية. ولهذا القانون مذكرات تفسيرية، ودارت حوله بحوث فيها غناء لمن أراد السعة فى فقه هذه المسائل .

وأخذ على ابن تيمية أشياء أخرى ذكرها ابن عبد الهادى فى ترجمته لابن تيمية والألوسى فى كتاب جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين ، كالقول فى قصر الصلاة فى كل ما يسمى سفراً طويلا كان أو قصيراً متابعاً للظاهرية. والقول بأن البكر لا تستبرأ و إن كانت كبيرة متابعاً للبخارى وابن عمر، والقول بعدم اشتراط الوضوء لسجدة التلاوة متابعاً لابن عمر، والقول بأن لا قضاء على من أكل فى شهر رمضان معتقداً أنه ليل فبان نهاراً متابعاً لعمر ، و بعض التابعين . والقول بتوريث المسلم من الكافر الذمى إلى غير ذلك من الأقوال التى لم تثر من الضجيج ما أثارته مسألة الطلاق .

وقد أثار سخط بعض الفقهاء عليه مسألة إنكار التوسل بالأنبياء والتوجه إليهم. وللعلماء فى هذا الموضوع آراء لا نرى من الخير الإطالة بذكرها. وابن تيمية لم يكن فى رأيه إلا متمسكا بالكتاب والسنة طالباً من خصومه أن يرد الأمر فيها إليهما وأنه يجب إفراد الله عز وجل بالعبادة والتوجه سداً

للذرائع وإبعاداً للمسلمين عن أن ينحدروا فيما انحدر إليه غيرهم من الأمم السابقة من عبادة غير الله أو إشراك غير الله فى الأمر ، وقد كتب ابن تيمية كثيراً فى هذا الموضوع بدءا ورداً على ابن السبكى وقد رأى ابن تيمية فى عصره الآثار التى جرها الدعاء والتوسل بغير الله وقد سمع هو فى حربه مع التتار أن أهل دمشق الشام لما ورد إليهم العدو خرجوا يستغيثون بالموتى عند القبور راجين عندها كشف الضر وقال بعض الشعراء :

يا خائفين من التتر ... لوذوا بقبر أبى عمر

عوذوا بقبر أبى عمر ... ينجيكمو من الضرر

فقال لهم هؤلاء الذين تستغيثون بهم لو كانوا معكم فى القتال لانهزموا كما انهزم المسلمون فى أحد لما أراد الله ذلك .

وقد حاول الألوسى فى جلاء العينين التوسط بين ابن تيمية و بين خصومه فى هذه المسألة. كذلك أخذ بعضهم عليه قوله بأن التوراة والإنجيل لم تبدل ألفاظهما وإنما بدلت معانيهما وإن كان هذا القول لم ينقل عن ابن تيمية نقلا صحيحاً ، ومع ذلك إن صح هذا القول فقد سبق ابن تيمية به ابن عباس وقد قال الألوسى فى تفسير قول الله تعالى يسمعون كلام الله ثم يحرفونه (يسمعون التوراة ويؤولونها تأويلا فاسداً حسب أغراضهم وإلى ذلك ذهب ابن عباس والجمهور على أن تحريفها تبديل كلام من إلقائهم) .

تلك كلمة مجملة حسبا وسعه كتيب كهذا فى النزاع بين ابن تيمية وخصومه والآراء التى كانت مثار الملاحاة والجدل بينه و بينهم كان فيها خصومه غير منصفين فى كثير من الأحيان مستعدين عليه سيف الدولة والسلطان لا سيف الحق والبرهان ، ولكنه مع ذلك لم يضعف ولم يهن أمامهم فظل يناهضهم ويجادلهم فى يده كتاب الله وسنة رسوله مستعيناً بالله راجياً فيما يكتب وجه الله وهو نعم المولى ونعم النصير .

كلمة ختامية

رأينا ابن تيمية فى الفصول السابقة عالماً يدرس ما استطاع أن يدرس من فنون المسلمين التى عرفوها إذ ذاك ورأيناه مجاهداً فى سبيل ما اعتقد أنه الحق فى العقيدة أو فى أحكام الشريعة العملية لم يترك طائفة من الطوائف إلا ناظرها يؤيده فى ذلك بضاعة غير مزجاة من أفهام فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وعرض فيمن عرض لليهود والنصارى فألف لهم كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح وكان فى حواره مع الفريقين آية فى فهم عقائدهم كما كان آية فى فهم عقائد المسلمين وآية فى معرفة تطور تاريخهم الكنسى كما كان آية فى معرفة تطور الفرق الإسلامية ويقول جولد زيهر فى المقالة التى نشرها عن ابن تيمية فى دائرة معارف الدين والأخلاق:

Encyclopedia of Religion and Ethics

إن دراسة ابن تيمية لشخصيات التوراة كانت مرجعاً عظيما لكل من حاول دراسة هذا الموضوع من بعده .

كان ابن تيمية كل ذلك . والآن نريد أن نعرض بكلمة عامة عن شخصية ابن تيمية العامة بعد أن عرضنا لشخصيته العلمية فقد يكون فى ذلك عون على تفهم تلك الشخصية التى شغلت الناس والدولة سنيناً طوالا والتى كان لها أكبر الآثار فى توجيه تلك الحركات الإصلاحية التى جاءت من بعده والتى يحاول كل مجدد ومفكر من المسلمين فى شتى الأقطار الأسلامية أن يغرف من معينها وأن يسير سيرتها ويهتدى بهديها وصاحب هذه الشخصية ملك ناصية العلوم الإسلامية بسعة حفظه وقوة ملكته التى استطاع معها أن يؤلف فى السجن كتبا ورسائل ذكر فيها أحاديث وأقوالا كل ذلك من حفظه لم يرجع إلى كتاب ولم يستشر حافظا ، وبمعرفته بصحيح المنقول وسقيمه على النحو الذى أسلفنا الإشارة إليه .

أول ما يروعك من صفات ابن تيمية تلك الروح الإسلامية الخالصة التى تعرف معنى الجماعة وتعرف معنى التضامن وتحرص على جمع شتات المسلمين وتحرص على أن لا يكون ثمث طريق للتفريق بينهم فإن سمع بجنازة سارع للصلاة عليها وإن أتاه طالب حاجة سارع لقضائها شديد الإيثار مع فقره فقد كان يتصدق حتى إذا لم يجد شيئا نزع بعض ثيابه فوصل بها الفقراء ويستفضل من قوته الرغيف والرغيفين فيؤثر بذلك على نفسه .

والشىء الذى لم نستطع الوصول إلى حجة قاطعة فيه المورد المالى الذى

كان يستعين به ابن تيمية فقد قال صفى الدين البخارى فى ترجمة ابن تيمية :
(وأما ورعه فكان من الغاية التى ينتهى إليها فى الورع فما خالط الناس فى بيع ولا شراء ولا معاملة ولا تجارة ولا كان ناظراً أو مباشراً لمال وقف ولم يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر ولا كان مدخراً ديناراً ولا درهما ولا متاعا ولا طعاما ولا زاحم فى طلب الرئاسات ولا رؤى ساعيا فى تحصيل المباحات مع أن الملوك والأمراء والتجار والكبراء كانوا طوع أمره خاضعين لقوله فأين حاله هذا من حال من أغراهم الشيطان بالوقيعة فيه؟ أما نظروا ببصائرهم إلى صفاتهم وصفاته وسماتهم وسماته وتحاسدهم فى طلب الدنيا وفراغه عنها ومبالغته فى الهرب منها) .

وقال الحافظ ابن فضل الله العمرى كانت تأتيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فيهب ذلك بأجمعه ويضعه عند أهل الحاجة فى موضعه ولا يأخذ منه شيئا إلا يهبه ولا يحفظه إلا ليذهبه .

ممّ كانت تأتيه تلك القناطير ؟ وكيف كان يعيش وهو لا يتعامل ولا يقبل رزقا من سلطان ولا عطية من أمير ؟ وكان كل وقته كما يقول المترجمون له موزعا بين العلم والوعظ وقضاء الحاجات فإن فاته شىء من ذلك قضى وقته فى السجن فى دمشق والقاهرة والإسكندرية يؤلف ويكتب فى العقائد وفى فتاوى الأحكام وتفسير آى الذكر الحكيم ما هدأت له نفس ولا اطمأن

له قلم وكيف تهدأ تلك النفس الثائرة القلقة التى لا تريد من الحياة إلا ما يريده العالم العامل الذى جعل من نفسه وارث الأنبياء وخليفة المرسلين وهو لا يكتفى بالعلم يرسله كلمات وسطوراً فى بطون الكتب والدفاتر بل يتبع ذلك بالعمل وهو الغاية العظمى للعلم . وكان ابن تيمية من أشجع الناس قلبا وأثبتهم جنانا حتى فى الساعات التى كاد يزيغ فيها قلوب فريق من الناس ، فجهاده بيده كجهاده بقلمه ولسانه قال الشيخ سراج الدين أبو حفص: (كان الشيخ إذا حضر فى عسكر المسلمين فى جهاد يكون بينهم إن رأى هلعا من بعضهم أو جبنا شجعه وثبته و بشره ووعده بالنصر والغنيمة وبين له فضل الجهاد والمجاهدين وكان إذا ركب الخيل يجول فى العدو كأعظم الشجعان و يقوم كأثبت الفرسان ويخوض المعركة خوض رجل لا يخاف الموت وقد رأوا منه فى فتح عكا أموراً من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها) .

لم يهن ابن تيمية ولم يستكن فى سبيل الله ولم يخف عدوا لله أو خارجا عن طاعة الله ولعل فى القصة التى أسلفناها عن موقفه مع غازان أكبر دليل على ذلك والدارسون للتاريخ الإسلامى يعرفون من غازان وما سلطانه .

قال أحد الأمراء : كنا بمرج الصُّفَّر فلما تراءى الجمعان قال لى الشيخ يا فلان أوقفنى موقف الموت فسقته إلى مقابلة العدو وهم منحدرون كالسيل

تلوح أسلحتهم من تحت الغبار المنعقد عليهم فقلت له. ياسيدى هذا موقف الموت وهذا العدو قد أقبل تحت هذه الغبرة المنعقدة فدونك وما تريد .

انتقل الشيخ بعد هذه المعركة ليحث المسلمين على قتال الروافض فى جبل كسروان ، و بعد النصر فيها أرسل كتابا للملك الناصر يبين له حال أولئك و يصف المعركة و يتقدم إلى الملك الناصر أن يضع لعبث أولئك وطغيانهم حدا كما سبق أن أشرنا إليه .

أليس ابن تيمية مثلا يجب أن يسير على غراره العلماء الذين يجب أن يكونوا فى طليعة المجاهدين فى سبيل الله القائمين على إعلاء كلمته فما كان ابن تيمية ليكتفى فى حياته بتلك الرسائل التى دبجها ولا بتلك الكتب التى حررها ولكنه كان يعتقد أن ثمة واجبا عمليا عليه كعالم سبقه بالقيام به نبى هذه الأمة الكريمة وصحابته الأجلاء الذين شهدوا الوقائع وكانت لهم فيها أيام غر محجلة وكان بسيوفهم من قراع الدارعين فلول حتى أثر عن عمر أنه كان كثير التغنى بهذين البيتين :

لم يبق من شرف العلا إلا التعرض للحتوف
فلأرمين بمهجتى بين الأسنة والسيوف

«لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة

وكلًّا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما » .

كان ابن تيميـة على نوع من الصراحة نتيجة ذلك القلب الطاهر الذى نصب نفسه لنصيحة المسلمين فهو يجهر بما يعتقد لا يركن إلى ما اصطلح الناس على تسميته حكمة أو سياسة أو مراعاة للظرف أو ما إلى ذلك من أسماء سداها ولحمتها التثبيط عن عمل الخير والقيام بما يجب لله من النصح فى وقته وما من شك فى أن ذلك كان عاملا كبيرا فى ثورة بعض العلماء والصوفية على ابن تيمية وقد مرن أولئك على شيء من الخنوع والاعتراف بالواقع دون محـاولة لتغييره تحينا لفرصة عساها — فى نظرهم — أنسب .

لم يتوان ابن تيمية عن أن يقول رأيه فى كل شيء طلب منه القول فيه أو دعت مناسبة للقول فيه . ولمـا جاء ابن تيمية لمصر يستنهض المماليك لغزو المغول نزل عند شرف الدين العمرى عم ابن فضل الله صاحب مسالك الأبصار فلقيه أبو حيان النحوى فأعجب أبو حيان بابن تيميـة وقال ما رأت عيناى مثله ومدحه على البديهة بقصيدة يقول منها :

قام ابن تيمية فى نصر شرعتنا مقام سيد تيم إذ عصت مضر
فأظهر الحق إذ آثاره درست وأخمد الشر إذ طارت به الشرر

فدارت بين أبى حيان وابن تيمية مسألة فى النحو قطعه فيها ابن تيمية وألزمه الحجة فاستشهد أبو حيان بكلام سيبويه فقال ابن تيمية يفشر سيبويه

أسيبويه نبي النحو أرسل إليه به حتى يكون معصوما. أخطأ فى القرآن فى ثمانين موضعا لا تفهمها أنت ولا هو.

لم يرض أبو حيان بهذه الصراحة أوالحدة من ابن تيمية ولما قرأ الحافظ ابن المحب على أبى حيان القصيدة التى مدح بها أبو حيان ابن تيمية قال قد كشطتها من ديوانى ولا أثنى عليه بخير هذا لا يستحق الخطاب.

وما من شك فى أن ابن تيميـة لم يكن هادئ الطبع فى مناقشته وذلك قدر اتفق عليـه جميع المترجمين له بل وتنم عليـه أساليبه فى الـكتابة تلك الأساليب التى تقرأ فيها روح ابن تيمية الثائرة وميله للعنف. ولو أن ابن تيمية قدر له شيء من الهدوء الذى قدر لتلميذه ابن القيم لأقبـل كثير من خصومه قبل محبيه على الانتفاع بتلك الثروة الهائلة من التراث الإسـلامى الذى يمثل لنا جيلا من أجيال التاريخ الإسلامى الحافل بشتى أنواع الجـدل والصراع. ولـكننى أظن أن ذلك الجموح هو الذى استطعنا عن طريقه أن نظفر بذلك اللون البديع من ألوان الحوار وذلك الأسـلوب السلفى فى المناقشة على تلك الطريقة الخاصة التى لم تقدر لغير ابن تيمية. والذى شهد بقوته وحسن وقعه خصومه قبل أصدقائه.

وقد كتب الحافظ الذهبى إلى الشيخ تقى الدين السبكى يعاتبه على ماصدر منه فى حق ابن تيمية فـكتب الجواب يعتذر عن تلك الحادثات وأشار لذلك

ابن رجب فى الطبقات قال ومما وجد فى كتاب كتبه العلامة قاضى القضاة أبو الحسن السبكى إلى الحافظ أبى عبد الله الذهبى فى أمر الشيخ تقى الدين: (وأما قول سيدى فى الشيخ فالمملوك يتحقق كبر قدره وزخارة بحره وتوسعه فى العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده و بلوغه فى كل ذلك المبلغ الذى لا يتجاوزه الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائما وقدره فى نفسى أكبر من ذلك وأجل مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى وغرابة مثله فى هذا الزمان بل فى أزمان) .

شهادة حسبها أنها من السبكى الذى أقام الدنيا وأقعدها على ابن تيمية وكتب عنه ما كتب وألف ما ألف فى الرد عليه .

والسبكى لم يقل فى الرجل إلا بعض ما يستحقه ، وحسب ابن تيمية أنه وقف كالطود أمام كل الطوائف التى عاصرها، تلك الطوائف التى ذكرها الشيخ عماد الدين المعروف بابن شيخ الحِزاميين فى رسالة كتبها إلى أصحاب ابن تيمية يوصيهم فيها بملازمة الشيخ ويحثهم على اتباع طريقته فيقول فيها (وقد عرفتم ما أحدث الناس من الأحداث، الفقهاء والقراء والصوفية والعوام فأنتم اليوم فى مقابلة الجهمية من الفقهاء نصرتم الله ورسوله فى حفظ ما أضاعوه من دين الله وتصلحون ما أفسدوه من تعطيل صفات الله .

وأنتم فى مقابلة من لم ينفذ فى علمه من الفقهاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمد على مجرد تقليد الأئمة فإنكم نصرتم الله ورسوله فى تنفيذ العلم إلى أصوله من الكتاب والسنة واتخاذ أقوال الأئمة تأسيا بهم لا تقليدا لهم .

وأنتم فى مقابلة ما أحدثته أنواع الفقراء من الأحمدية والحريرية من إظهار شعار المكاء والتصدية ومؤاخاة النساء والصبيان والإعراض عن دين الله الذى أنزله إلى خرافات مكذوبة عن مشايخهم وأنتم فى مقابلة رسمية الصوفية والفقهاء وما أحدثوه من الرسوم الوضعية من التصنع باللباس والإطراق والسجادة لنيل الرزق وتنميق الكلام حفظا للمناصب واستجلابا للرزق فخلط هؤلاء فى عبادة الله غيره ففسدت قلوبهم من حيث لا يشعرون .

وأنتم فى مقابلة ما أحدثته الزنادقة والفقراء والصوفية من قولهم بالحلول والاتحاد كالسبعينية والتلمسانية والذين يجعلون الوجود مظهرا للحق باعتبار ألا متحرك فى الكون سواه ولا ناطق فى الأشخاص غيره لا فرق بين ظاهر ومظهر ، فالأمر كموج البحر لا فرق بين عين الموجة وعين البحر حتى أن أحدهم يتوهم أنه الله فينطق على لسانه ثم يفعل ما أراد من الفواحش والمعاصى لأنه يعتقد ارتفاع الثنوية فمن العابد ومن المعبود صار الكل واحدا .

فأنتم بحمد الله قائمون فى وجه هؤلاء تنصرون الله ورسوله ولا قربة أفضل عند الله من القيام بجهاد هؤلاء ما أمكن وجهاد كل من ألحد فى دين الله وزاغ عن حدوده وشريعته كائنا فى ذلك ما كان من فتنة :

إذا رضى الحبيب فلا أبالى   أقام الحى أم جد الرحيل

وأنتم بحمـد الله قائمون بجهاد الأمراء والأجناد تصلحون ما أفسدوا من المظالم والإجحافات وقائمون فى وجوه العامة مما أحدثوا فى تقبيل القبور والأحجار و إنما أعرض هذا الضعيف عن ذكر قيامكم فى وجوه التتر والنصارى واليهود والرافضة والمعتزلة والقدرية وأصناف البدع والضلالات لأن الناس متفقون على ذمهم يزعمون أنهم قائمون برد بدعهم ولا يقومون بتوفية حق الرد عليهم كما تقومون بل يعلمون ويجبنون عن اللقاء فلا يجاهدون وتأخذهم فى الله اللائمة لحفظ مناصبهم و إبقاء على أعراضهم .

فأنتم القائمون فى وجوه هؤلاء إن شاء الله بقيامكم بنصرة شيخكم وشيخنا أيده الله فاشكروا الله على أن أقام لنا ولكم فى هذا العصر مثل الشيخ الذى فتح الله به أقفال القلوب وكشف به عن البصائر عمى الشبهات وحيرة الضلالات فاعرفوا حق هذا الرجل الذى هو بين أظهركم وقدروه ولا يعرف حقه وقدره إلا من عرف دين الرسول عليـه السلام) والكتاب طويل لا يسع المقام النقل عنه بأكثر من ذلك القدر .

نعم وقف ابن تيمية أمام تلك الطوائف وحاجها جميعا ولم يتردد فى بذل مهجته إن دعاه الداعى ولسان حاله يقول :

أليس عظيما أن تلم ملمة   وليس علينا فى الحقوق معول

والشيخ كان عالى النفس يرى نفسه مجاهدا فى الله لا طالبا لمغنم شخصى

وقد كان فى إمكانه بعد ما نزل من الناصر المنزلة التى نزلها أن يستغل صلته بالناصر لينتقم من خصومه ولكن ابن تيمية يرى الحياة على النحو الذى رآها عليه رسول الله ﷺ . ولما بعث الناصر لاستقدام ابن تيمية من سجن الإسكندرية بعد مجيئه من الكرك ، واجتمع ابن تيمية بالناصر نزل السلطان عن الإيوان وذهب مع ابن تيمية إلى صُفَّة فى ذلك المكان فيها شباك إلى بستان ، فأخرج السلطان من جيبه فتاوى لبعض العلماء الحاضرين فى قتل ابن تيمية واستفتاه فى قتل بعضهم ففهم تقى الدين بن تيمية مقصوده وأن الناصر واجد عليهم أنهم خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير فشرع ابن تيمية فى مدحهم والثناء عليهم وشكرهم وقال له: إن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم فى دولتك ، أما أنا فهم فى حل من حقى ومن جهتى وسكن ما به نحوهم . وكان القاضى زين الدين بن مخلوف قاضى المالكية الذى كان جلاد ابن تيمية يقول ما رأينا أتقى لله من ابن تيمية لم نبق ممكنا فى السعى فيه ولما قدر علينا عفا عنا.

تبارك الله ذاك خلق العلماء خلق الأنبياء والمرسلين يحيون لله و يموتون لله أرواحهم وأعراضهم رخيصة فى سبيل الله .

إذا أعجبتك خصال امرئ　　　فكنه يكن منه ما يعجبك
فليس لدى المجد والمكرما　　　ت إذا جئتها حاجب يحجبك

كان ابن تيمية كل ذلك وفوق ذلك و إن عيب عن ابن تيمية بعض الهنات فمن ذا الذى لا تؤخذ عليه زلات أو تنقل عنه سيئات وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه، ومن

الطبيعى أن هذا الصراع الذى كان دائما غاية فى العنف بين ابن تيمية وخصومه كان يجر إلى شىء غير قليل من الثورة التى تنجلى دائما عما انجلى عنه نزاع ابن تيمية مع تلك الطوائف التى صارعها وجادلها وذلك شىء لاينتهض للحط على ماخلف ابن تيمية من ثروة فى شتى نواحى الثقافة الإسلامية يقول فيها شهاب الدين بن مرى فى الكتاب الذى أرسله لإخوانه تلاميذ شيخ الإسلام يغريهم ويحثهم على جمع مصنفاته (وقد علم أن لكتبه من الخصوصية والنفع والصحة والبسط والتحقيق والإتقان والكمال وتسهيل العبارات وجمع أشتات المتفرقات والنطق من مضايق الأبواب بحقائق فصل الخطاب ماليس لأكثر المصنفين فى أبواب مسائل أصول الدين وغيرهما من مسائل المحققين لأنه كان يجعل النقل الصحيح أصله وعهدته فى جميع ما يبنى عليه ثم يعتضد بالعقليات الصحيحة التى توافق ذلك ويجتهد فى دفع كل ما يعارض ذلك من شبه المعقولات ويلتزم حل كل شبهة كلامية وفلسفية ويلتزم الجمع بين صحيح المنقول وصريح المعقول فكانت مقاصده وتحقيقاته فى هذا الباب العظيم عجبا من عجائب الوجود اهـ) .

ذاك الذى شغل مصر والشام فى القرون الوسطى عاش مظلوما ومات فأرادت الأقدار إلا أن تجمع بينه و بين خصومه فى المقبرة بعد أن ضرب الدهر بينهما ضرباته فى الحياة وجمع الموت بسلطانه مالم تستطع قوة فى الحياة أن تفعله فدفن ابن تيمية فى مقابر الصوفية بعد أن ظل طول حياته يحارب الصوفية وذهب الجميع إلى الله

ليجزى الذين أحسنوا بالحسنى و يثيب كل عامل بما عمل وسكت ابن تيمية بعدما أسمع الخافقين صرير قلمه فعاش لله فعند الله جزاؤه ـ كان (كما يقول العمرى) «أمة وحده وفرداً حتى نزل لحده جاء فى عصر مأهول العلماء مشحون بنجوم السماء تموج فى جانبيه بحور خضارم وتطير بين خافقيه نسور قشاعم وتشرق فى أنديته بدور وضية وصدور أسنة إلا أن صباحه طمس تلك النجوم وبحره طم على تلك الغيوم ففاءت سمرته على تلك التلاع وأطلت قسورته على تلك السباع ثم عبئت له الكتائب فحطم صفوفها وخطم أنوفها وابتلع غديره المطمئن جداولها واقتلع طوده المرجحن جنادلها وأخمدت أنفاسهم ريحه وأكمدت شررهم مصابيحه فجمع أشتات المذاهب وشتات الذاهب». ولا تزال آثاره ماثلة فى كل حركة إصلاحية فى العالم الإسلامى فالدعوة الوهابية وغيرها من الدعوات السلفية تستمد مما ترك ابن تيمية من آراء ومن نزعات وآثار الدعوات الوهابيـة الإصـلاحية غير منكورة الأثر فى شبه جزيرة العرب وما حواليها .

رضى الله عنـه وأرضاه وقد قال التاريخ كلمته وسينصفه الناس كلما تقدم الزمن ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز